فلسفة العُمران الحضاري

من منظور قرآني

د. محمد محمود كالو

جامعة أديامان – تركيا

مقدمة:

يحث الإسلام على عمران الأرض وتعميرها بالخير وبما ينفع الناس أفراداً وجماعات، قال الله تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ} [الملك:١٥]، وقال سبحانه وتعالى: {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا} [النبأ:٦]، ويكون تعمير الأرض باستثمارها وإحيائها واستخراج ثرواتها، وإحياء الأرض البوار والموات يكون بالبناء للسكن أو العمل أو الاستزراع، قال الله تعالى: { قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ} [الأعراف:٢٤], والتعمير يصحبه الإستيطان البشري فى التجمعات العمرانية الجديدة مرتكزاً على مبدأ التوازن والتكافل الاجتماعي بين الطبقات ويتبعه بالضرورة التكافل العمراني دون تفرقة أو طبقية او تمييز فى الجنس أو اللون ما داموا يتقون الله فى أعمالهم وفي أداء وظائفهم الاجتماعية التي تتوافق مع إمكاناتهم وقدراتهم، قال الله تعالى: { أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} [الزخرف:٣٢].

ولا يمكن الفصل بين البشر والحجر في عمليات التنمية والتعمير، فإذا كان البناء يتولاه المتخصصون فى مختلف علوم البناء فإن بناء المجتمع الإسلامي تتولاه مؤسسة المسجد، ومن هنا يتحدد دور مؤسسة المسجد فى بناء العمران ليس فقط كمكان للعبادة والصلاة ولكن أيضاً كمركز للتنظيم الاجتماعي والثقافي والإداري للمجتمع حيث تتم فيه اللقاءات والفعاليات والأنشطة التى توطد أواصر الجوار، و تحافظ على البيئة المعمارية جمالياً وصحياً.

ولما كان فقه العُمران من أنواع الفقه الغائب لعقود من الزمن، أحببت أن أكتب فيه مبيناً **(مفهوم العُمران في ضوء القرآن)**، وقد قسمتُ البحث بعد هذه المقدمة إلى ثلاث مباحث، في كل مبحث عدة مطالب، وخاتمة شاملة لأهم النتائج على الشكل التالي:

المبحث الأول: مفهوم العمران وفيه أربعة مطالب:

- **المطلب الأول**: العمران لغة واصطلاحاً.
- **المطلب الثاني**: عناية الإسلام بعمارة الأرض.
- **المطلب الثالث**: ابن خلدون وقراءته للعمران.
- **المطلب الرابع**: آراء العلماء في علوم عمارة الأرض.

المبحث الثاني: العمران في ضوء القرآن، وفيه أربعة مطالب:

- **المطلب الأول**: مفهوم العمران في القرآن.
- **المطلب الثاني**: مفهوم الاستخلاف وشروطه.
- **المطلب الثالث**: مفهوم التسخير واستثماره.
- **المطلب الرابع**: مفهوم الفساد ومظاهره في الأرض.

المبحث الثالث: عُمران المساكن والحضارات، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: عمارة البيوت والمساكن.

المطلب الثاني: نماذج من حضارات عمرانية بائدة.

الخاتمة وتشمل النتائج.

المبحث الأول: مفهوم العمران وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: العُمران لغة واصطلاحاً.

العُمْرَانُ في **اللغة**: نقيض الخراب، وما يُعَمَّرُ به البلد ويُحسَّن حالُه بوساطة الفلاحة والصناعة والتجارة وكثرة الأَهالي ونُجح الأعمال والتمدُّن، وحَضَارَةٌ وَعُمْرَانٌ: أي حَرَكَةٌ وَأَعْمَالٌ وَتَشْيِيدٌ وَتَمَدُّنٌ، قال أحمد بن فارس: "وَمِنَ الْبَابِ عِمَارَةُ الْأَرْضِ، يُقَالُ عَمَّرَ النَّاسُ الْأَرْضَ عِمَارَةً، وَهُمْ يَعْمُرُونَهَا، وَهِيَ عَامِرَةٌ مَعْمُورَةٌ. وَقَوْلُهُمْ: عَامِرَةٌ، مَحْمُولٌ عَلَى عَمَرَتِ الْأَرْضُ، وَالْمَعْمُورَةُ مَنْ عُمِرَتْ. وَالِاسْمُ وَالْمَصْدَرُ الْعُمْرَانُ: وَاسْتَعْمَرَ اللَّهُ - تَعَالَى - النَّاسَ فِي الْأَرْضِ لِيُعَمِّرُوهَا."[١].

فالعمران هو مصدر من عَمَرَ الأرض يعمُرُها عِمَارةً وعُمْرَانًا، والألف والنون في العربية تفيد المبالغة، أي عمارة جيدة وكبيرة، وحين توجد عمارة جيدة ممتازة إما لسعتها أو ضخامتها أو غير ذلك تكون عمرانًا، وكل الإنشاءات المعنوية والحسية التي يقوم بها الإنسان فيعبد بها الله تعالى ويقوم بوظيفة الخلافةكل ذلك عمران، وليس كل ما أنتجه البشر من إنشاءات مادية ومعنوية عمران إلا إذا كان على أسس القرآن، لأن العمران ضد الخراب، وأول ما قاله الراغب الأصفهاني في المفردات: "العِمَارَةُ: نقيض الخراب: يقال: عَمَرَ أرضَهُ: يَعْمُرُهَا عِمَارَةً. قال تعالى: ﴿وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ﴾ (التوبة:١٩)، يقال: عَمَّرْتُهُ فَعَمَرَ فهو مَعْمُورٌ. قال: ﴿وَعَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها﴾ (الروم:٩)، ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ (الطور:٤)، وأَعْمَرْتُهُ الأرضَ واسْتَعْمَرْتُهُ: إذا فوّضت إليه العِمَارَةُ، قال: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها﴾ (هود:٦١) والْعَمْرُ والْعُمُرُ: اسم لمدّة عمارة البدن بالحياة، فهو دون البقاء، فإذا قيل: طال عُمُرُهُ، فمعناه: عِمَارَةُ بدنِهِ بروحه، وإذا قيل: بقاؤه فليس يقتضي ذلك، فإنّ البقاء ضدّ الفناء، ولفضل البقاء على العمر وصف الله به، وقلّما وصف بالعمر، والتَّعْمِيرُ: إعطاء العمر بالفعل، أو بالقول على سبيل الدّعاء."[٢].

فكل ما فيه تدمير للبشرية بشكل من الأشكال سواء على مستوى الأفكار أو على مستوى الإنشاءات المادية لا يمكن أن يسمى عمرانًا، وكذلك إذا كان في الظاهر يفيد الإنسان؛ لكن لم يُقصد به ذلك، وإنما جاء عرَضًا لمقصد آخر لا يعتبر عمرانًا، كفعل الكافر إذا لم يكن له إيمان، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾(الإسراء:١٩)، فقد يريد الآخرة ويسعى لها سعيها لكنه ليس مؤمنًا، فلا فائدة حينئذ، قال الله تعالى: ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾(إبراهيم:١٨)، فارتباط العمران بالقرآن؛ ارتباط السبب بالمسبب، لأن الذي ينشئ العمران هو القرآن، إذ العُمران مرتبط بالوظيفة الأصلية لآدم عليه السلام وبنيه، التي هي الخلافة والتي حددت في عبادة الله وحده.

١- ابن فارس، أحمد. **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م، ج٤، ص١٤١.

٢- الأصفهاني، الحسين بن محمد المعروف بالراغب. **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، بيروت، دار القلم الدار الشامية، ١٤١٢هـ، ص٥٨٦.

ولفظ (العُمْرَان) لم يرد في القرآن الكريم، وإنَّما ورد فيه ما يفيد الإعمار والتَّعمير بألفاظ مثل: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها﴾ (هود:٦١)، ﴿وَعَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها﴾ (الروم:٩)؛ أي: الأرض، ﴿وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ﴾ (التوبة:١٩)، وكلها تفيد العُمْرَان، وتعمير الإنسان لمنطقة معيَّنة بقصد العيش وعبادة الله تعالى.

والعُمْرَانُ في **الاصطِلاح** اقترحه المفكِّر العلامة ابن خلدون في مقدّمته؛ للدّلالة على نمط الحياة بوجه عام، جاعِلاً إيَّاه أحد الخواصّ التي تميَّز بها الإنسان عن سائر الحيوانات، فالعُمْرَانُ عند ابن خلدون هو ما يسمى الآن (علم الاجتماع) يعني عمران الأرض باجتماع الناس بعضهم إلى بعض ووجود روابط تربطهم وقوانين تنظم حياتهم فقال: "العُمران وهو: التَّساكُن والتَّنازُل في مصر أو حلَّةٍ للأنس بالعشير، واقتِضاء الحاجات لما فيه من طباعِهِم من التعاون على المعاش"[1] ، وقدِ استلهمه ابن خلدون من قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود:٦)، والعُمران عند ابن خلدون نوعان: "ومن هذا العمران ما يكون بدويّا وهو الّذي يكون في الضّواحي وفي الجبال وفي الحلل المنتجعة في القفار وأطراف الرّمال، ومنه ما يكون حضريّا وهو الّذي بالأمصار والقرى والمدن والمدر للاعتصام بها والتّحصّن بجدرانها"[2].

المطلب الثاني: عناية الإسلام بعمارة الأرض.

لقد عني الإسلام بعمارة الأرض ورعاية الكون عناية خاصة وأولاها اهتماماً مشهوداً، فالله سبحانه وتعالى خلق الكون وهيأ فيه الظروف المثلى للحياة السعيدة المستقرة، ثم استخلف فيه الإنسان ليقوم بإعماره على الوجه الأكمل الذي يحقق به مرضاة ربه وخدمة بني جنسه وخدمة الكون من حوله؛ قال الله تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦١).

وعندما عرض القرآن الكريم قصة بدء الخليقة والنشأة الأولى أشار في سياق ذلك إلى أن أكبر مهدد لاستمرار الحياة الطبيعية على هذا الكوكب الوليد؛ إنما يأتي من سفك الدماء والإفساد في الأرض؛ فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ (البقرة: ٣٠)؛ فالإفساد الذي هو ضد الإعمار أكبر خطر يتهدد الحياة، وهو البند الأول من المهددات التي استشعرها الملائكة الكرام أثناء الحوار عن الأرض وخليفتها، ومن ثَمَّ فقد حذر المولى جل جلاله أشد تحذير من هذه الماحقة المدمرة؛ وجرَّم إراقة الدماء بغير حق أيما تجريم، وحرم الاعتداء على الممتلكات الخاصة أو على مالكيها، وفي سياق التشريع القانوني وضعت أشد عقوبة وأقساها في الإسلام ضد المفسدين في الأرض يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (المائدة: ٣٣).

---

١ - ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (المتوفى٨٠٨هـ)، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، ص٥٣.

٢ - المرجع السابق.

وهكذا جاء خلْقَ الإنسان في نهاية سلسلة خلق جميع الكائنات على سطح الأرض، وعِلَّة ذلك أن الله تعالى هيأ في الأرض نظامًا متكاملًا متوازنًا يعج بالحياة بكافة أنواعها حتى تكون في استعداد تام لاستقبال الملك المتَوج من قِبلِ الله تعالى على كوكب الأرض، فحينما خلق الله تبارك وتعالى الأرض بارك فيها وقدَّر فيها أقواتها من أول ما خلقها وهيأ للناس أرزاقهم فيها كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ. وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ...﴾ (الأعراف:١٠-١١) قوله: ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ أي فِي أَصْلَاب آبَائِكُمْ ويعني بذلك آدم عليه السلام؛ وذكر بلفظ الجمع لأنه أبو البشر، ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أي فِي بُطُون أُمَّهَاتكُمْ، يعني قبل أن يخلقهم خلَقَ لهم ما يكفيهم وجعل لهم فيها معايش، وعليهم هم أن ينظموا أنفسهم ويبحثوا في الزراعة والغرس والصناعة والتجارة والاقتصاد والعمارة في البناء، وتعلم الأدوات المختلفة ويشكروا الله على ذلك، حتى قال علماء المسلمين: كل ما يحتاج الناس لتعلمه لتنمو حياتهم وتتكامل يعتبر فرض كفاية[1] عليهم أن يتعلموه، ومن ذلك العلوم الدنيوية؛ كالطب والهندسة والفيزياء والكيمياء والرياضيات والفلك واستخراج المعادن والزراعة والملاحة والفلاحة والحياكة وعلوم الحاسوب والتكنولوجيا الحديثة والعلوم السياسية والعسكرية وغيرها، بل يجب عليهم أن يتقنوا هذه الأشياء حتى لا يحتاجوا إلى غيرهم ممن يبتزُّهم ويكتفوا بذلك اكتفاء ذاتياً، بحيث تتكامل معاني القوة والازدهار في الحياة الإسلامية.

المطلب الثالث: ابن خلدون وقراءته للعُمران

لقد اهتدى عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (المتوفى٨٠٨هـ) إلى استنباط قواعد العُمران وأصول الاجتماع من التاريخ فصنف في ذلك، وقال في مقدمة تاريخه المشهور: "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، هذا العلم الذي لم يزد عليه أحد بعده من علماء المسلمين حتى ولا تلاميذه كالمقريزي وابن الأزرق؛ فقد عرّفوا بفكر شيخهم لكنهم لم يضيفوا شيئاً يذكر على ما اكتشفه ابن خلدون، "ولو لم تنقطع بنا سلسلة العلم من ذلك العهد لكنا أتممنا ما بدأ به سلفنا، ولكننا تركناه وسبقنا غيرنا إلى إتمامه واستثماره، فالتاريخ هو المرشد الأكبر للأمم العزيزة اليوم إلى ما هي فيه من سعة العُمران وعزة السلطان"[2]، ولقد مدح المؤرخ البريطاني الشهير (توينبي) ابن خلدون ودوره العلمي لمقدمته فقال: "قد أدرك وتصور وأنشأ فلسفة للتاريخ هي بلا شك أعظم عمل من نوعه خلقه أيّ عقل في أي زمان ومكان"[3].

١- ولأهمية القيام بفروض الكفاية في الشريعة الإسلامية قال بعض العلماء: إن القيام بها أفضل من القيام بفرض العين لعموم نفعها وإسقاط الإثم بالقيام بها عن جميع الأمة، قال صاحب المراقي:

وهو مفضل على ذي العين   في زعم الأستاذ مع الجويني

٢- علي رضا، محمد رشيد (المتوفى١٣٥٤هـ)، **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م، ج١، ص٢٥٩.

٣- الجابري، محمد عابد (المتوفى ٢٠١٠م)، **فكر ابن خلدون العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة السادسة ١٩٩٤م، ص١٣٠.

تابع كثير من علماء الغرب من مفكرين ومستشرقين ومؤرخين أعمال ابن خلدون ودرسوا أفكاره بإعجاب كبير، ولكن عددًا كبيرًا منهم نزع عنه صفته الإسلامية، وبعضهم الآخر جرّده من هويته العربية، مستكثرين على العرب والمسلمين أن يكون منهم عالم مثل ابن خلدون.

وقد أطلق الفيلسوف الأسباني (خوسيه أورتيجا أي جاست) على ابن خلدون لقب فيلسوف التاريخ الإفريقي، كما تعتبر المقدمة من حيث الزمن أول كتاب يؤلف في فلسفة التاريخ.

أما المستشرق الأسباني (بونس بويجس) فيؤكد أن ابن خلدون من أعظم الشخصيات تمثيلاً للتاريخ الفلسفي البعيد المدى، وينسبه إلى أصل إسباني، ويذهب المستشرق الإسباني (ريبيرا) في الفخر به قائلاً: (إن الوطن الإسباني يستطيع بحق أن ينسب إليه أعظم إنتاج تاريخي في العلوم الإسلامية)[١].

ويتحدث المؤرخ البريطاني الشهير المعاصر (آرنولد توينبي) عن ابن خلدون حديث الثناء والإعجاب بشخصه وريادته العلمية، يقول توينبي عن ابن خلدون: "إنه آخر عضو من نجومنا المؤرخين"، وأطلق على المقدمة، باعتبارها العمل الجليل الذي قام به ابن خلدون "عمل الحياة"، وكما يبدو أن توينبي الذي شن حملة شعواء على الحضارة الإسلامية قال بحتمية التاريخ متأثراً بقانون السببية عند ابن خلدون، ولكنه لم يشر إلى ذلك[٢].

وهكذا استطاع ابن خلدون بفكره الفذ ونظرياته العبقرية أن ينال كل هذا الاعتراف من كبار مؤرخي العالم وباحثيه على عبقريته وابتكاراته وسبقه لعلماء الغرب فيما ابتكره في التاريخ والسياسة والاقتصاد وعلم الاجتماع

ولما انتشر هذا العلم، واشتهر مكتشفه وذاع صيته جاء (دوركايم) مؤسس علم الاجتماع الحديث وغيره، وأطلقوا على هذا العلم (السوسيولوجيا) فأصبح علماً قائماً بذاته، قال عنه ابن خلدون بأنه: "علم مستقل بنفسه فإنه ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني، وذو مسائل وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى، وهذا شأن كل علم من العلوم وضعياً كان أو عقلياً"[٣].

والعمران عند ابن خلدون يقوم في حقيقة أمره على دعامتين متلازمتين:

١-دعامة اجتماعية سياسية تشمل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعضم.

٢-ودعامة اقتصادية تشمل ما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع.

فقد بيّن غاية هذا العلم قائلاً: "حقيقة التّاريخ أنّه خبر عن الاجتماع الانسانيّ الّذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التّوحّش والتّأنّس والعصبيّات وأصناف التّغلّبات للبشر بعضهم على بعض

١- حمّيش، عبد الحق، **الفكر الاقتصادي عند العلامة ابن خلدون مقارناً مع النظريات الاقتصادية الحديثة**، مجلة دراسات اقتصادية إسلامية، العدد الثاني، محرم ١٤٢٧هـ، ص٧٤.

٢- المرجع السابق، ص٧٥.

٣- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (المتوفى٨٠٨هـ)، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، ص٤٩

وما ينشأ عن ذلك من الملك والدّول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصّنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال."[1].

ولم تغب عن ابن خلدون أهمية العمل والاقتصاد ودورهما في ازدهار العمران، فقد خصص القسم الخامس من مقدمته لدراسة المسائل المتعلقة بالكسب والحصول على المال بجهد، والطرق الموصلة لذلك؛ ولمختلف مستويات الثروة في علاقتها بطبيعة الصنائع والحِرَف التي يمارسها الناس، ولوسائل المعاش التي يعيش بها الأفراد في المجتمع وللأرباح والفائض.

ولقد لاحظ ابن خلدون أن "الضرائب القليلة ينتج عنها انتعاش اقتصادي بالنظر إلى كثرة المتحصل منها لهذا الانتعاش، وأن قلة الضرائب تساعد على دفع عجلة التطور إلى الأمام وتنعش العمران وتضاعف دخل الدولة وثروة المجتمع"[2].

ويقسم ابن خلدون الأعمال إلى نوعين فردي وجماعي، كما يفرق من جهة أخرى بين الإنتاج اليدوي والإنتاج الحضري، ويذكر أن فَقْدَ الأعمال تؤثر على العمران فيقول: "واعلم أنّه إذا فقدت الأعمال أو قلّت بانتقاص العمران تأذّن الله برفع الكسب أترى إلى الأمصار القليلة السّاكن كيف يقلّ الرّزق والكسب فيها أو يفقد لقلّة الأعمال الإنسانيّة وكذلك الأمصار الّتي يكون عمرانها أكثر يكون أهلها أوسع أحوالاً وأشدّ رفاهية كما قدّمناه قبل ومن هذا الباب تقول العامّة في البلاد إذا تناقص عمرانها إنّها قد ذهب رزقها حتّى أنّ الأنهار والعيون ينقطع جريها في القفر لما أنّ فور العيون إنّما يكون بالأنباط والامتراء[3] الّذي هو بالعمل الإنسانيّ كالحال في ضروع الأنعام فما لم يكن إنباط ولا امتراء نضبت وغارت بالجملة كما يجفّ الضّرع إذا ترك امتراؤه. وأنظره في البلاد الّتي تعهد فيها العيون لأيّام عمرانها ثمّ يأتي عليها الخراب كيف تغور مياهها جملة كأنّها لم تكن «وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَار»[4].

ثم إن درجة تطور الأفراد تتوقف على الوسائل والطرق التي يحصلون بها على معاشهم، وبالتالي يتوقف تطور المجتمعات على أشكال الإنتاج وقيام الصنائع، وفي هذا يقول ابن خلدون: "اعلم أنّ اختلاف الأجيال في أحوالهم إنّما هو باختلاف نحلتهم من المعاش فإنّ اجتماعهم إنّما هو للتّعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروريّ منه ونشيط قبل الحاجيّ والكماليّ فمنهم من يستعمل الفلح من الغراسة والزّراعة ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز والنّحل والدّود لنتاجها واستخراج فضلاتها وهؤلاء القائمون على الفلح... أهل البدو هم المنتخلون للمعاش الطّبيعيّ من الفلح والقيام على الأنعام وأنّهم مقتصرون على الضّروريّ من الأقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد ومقصّرون عمّا فوق ذلك من حاجيّ أو كماليّ يتّخذون البيوت من الشّعر

١- المصدر السابق، ص٤٦.

٢- حميّش، عبد الحق، **الفكر الاقتصادي عند العلامة ابن خلدون**، ص٨٦.

٣- **الأنباط**: أصله من النبط وهو الماء الذي يخرج من البئر أول ما تحفر. **والامتراء**: قال ابن سيده : مرى الشيء وامتراه استخرجه. (انظر لسان العرب لابن منظور).

٤- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، **ديوان المبتدأ والخبر**، ص٤٧٨- ٤٧٩.

والوبر أو الشّجر أو من الطّين والحجارة غير منجّدة إنّما هو قصد الاستظلال والكنّ... فيتّخذون القصور والمنازل ويجرون فيها المياه ويعالون في صرحها ويبالغون في تنجيدها ويختلفون في استجادة ما يتّخذونه لمعاشهم من ملبوس أو فراش أو آنية أو ماعون وهؤلاء هم الحضر ومعناه الحاضرون أهل الأمصار والبلدان ومن هؤلاء من ينتحل في معاشه الصّنائع ومنهم من ينتحل التّجارة وتكون مكاسبهم أنمى وأرفه من أهل البدو لأنّ أحوالهم زائدة على الضّروريّ... فخشونة البداوة قبل رقّة الحضارة"[١].

ويوضح ابن خلدون أن ذلك كله يتطلَّب توافر الأمن حيث بدونه تعُمُّ الفوضى ويسود الاضطراب ويفسد العُمران فيقول: " ثمّ إنّ هذا الاجتماع إذا حصل للبشر كما قرّرناه وتمّ عمران العالم بهم فلا بدّ من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانيّة من العدوان والظّلم وليست السّلاح الّتي جعلت دافعة لعدوان الحيوانات العجم عنهم كافية في دفع العدوان عنهم لأنّها موجودة لجميعهم فلا بدّ من شيء آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض ولا يكون من غيرهم لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم وإلهاماتهم فيكون ذلك الوازع واحدا منهم يكون له عليهم الغلبة والسّلطان واليد القاهرة حتّى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان وهذا هو معنى الملك"[٢].

ونقل كلام الموبذان فقيه الفرس وحاكم المجوس في حكاية البوم[٣] التي حكاها المسعوديّ في أخبار الفرس فقال: "إنّ الملك لا يتمّ عزّه إلّا بالشّريعة والقيام للّه بطاعته والتّصرّف تحت أمره ونهيه ولا قوام للشّريعة إلّا بالملك ولا عزّ للملك إلّا بالرّجال ولا قوام للرّجال إلّا بالمال ولا سبيل إلى المال إلّا بالعمارة ولا سبيل للعمارة إلّا بالعدل والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الرّبّ وجعل له قيّما وهو الملك"[٤].

وهكذا يربط بين جميع المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المهمة، ومنها الشريعة والرجال والمال والعمران والعدل والمساواة بطريقة دائرية مترابطة في شكل سلسلة.

وبعد أن درس ابن خلدون جميع هذه المظاهر والعوامل وجد أن "الفساد مؤذن بخراب الدولة" لأن انتشار الفساد يدفع بعامة الشعب إلى مهاوي الفقر والعجز عن تأمين مقتضيات العيش، كما يدفع بالمنتجين إلى التذمر والضيق حين يرون جهدهم يُنْهَب، ويؤدي ذلك إلى انهيار الدولة، والانهيار لا يصيب الحاكمين فقط، ولا يؤدي

١- المرجع السابق، ص١٤٩-١٥٢.

٢- المرجع السابق، ص٥٦.

٣- حكى المسعوديّ في أخبار الفرس عن الموبذان صاحب الدّين عندهم أيّام بهرام بن بهرام وما عرّض به للملك في إنكار ما كان عليه من الظّلم والغفلة عن عائدته على الدّولة بضرب المثال في ذلك على لسان البوم حين سمع الملك أصواتها وسأله عن فهم كلامها فقال له: «إنّ بوما ذكرا يروم نكاح بوم أنثى وإنّها شرطت عليه عشرين قرية من الخراب في أيّام بهرام فقبل شرطها، وقال لها: إن دامت أيّام الملك أقطعتك ألف قرية وهذا أسهل مرام» . فتنبّه الملك من غفلته وخلا بالموبذان وسأله عن مراده فقال له أيّها الملك إنّ الملك لا يتمّ عزّه إلّا بالشّريعة والقيام للّه بطاعته والتّصرّف تحت أمره ونهيه..." [ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، ديوان المبتدأ والخبر، ص٣٥٤].

٤- المرجع السابق، ص٣٥٤.

إلى استبدال سلطة بأخرى، بل إنه يدمر الدولة كلها، إنها مسألة مصير مجتمع بأسره، ويستنطق ابن خلدون التاريخ بدقة ومهارة، ليجد أن الدول تنشأ وتنمو وتصل إلى قمة مجدها، ثم تضعف وتموت.

المطلب الرابع: آراء العلماء في علوم عمارة الأرض

إن عمارة الأرض بالبناء والصناعة والزّراعة والانتفاع بما في باطنها من معادن وخيرات مطلوب من النّاس عامّةً، ومن المسلمين بشكل خاص، لأنه من مقتضيات الاستخلاف العامّ للنّاس في الأرض، فقد خلق الله تعالى الإنسان في الحياة الدنيا لِغايتيْن اثنين: عبادة الله سبحانه كما شرع، وعمارة أرضه كما أمر، والإمام الرّاغب الأصفهاني اعتبر عمارة الأرض أحد مقاصد ثلاثة أساسية خُلق لها الإنسان، وهي: العبادة والخلافة والعمارة[1]، والمقصود بالعمارة هو (علم العُمران).

قال الإمام أبو حامد الغزالي: "أما فرض الكفاية فهو علم لا يستغني عنه في قوام أمور الدنيا كالطب إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان وكالحساب فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرهما وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين.

فلا يتعجب من قولنا: إن الطب والحساب من فروض الكفايات فإن أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفايات كالفلاحة والحياكة والسياسة بل الحجامة والخياطة فإنه لو خلا البلد من الحجام تسارع الهلاك إليهم وحرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك"[2].

وقال العز بن عبد السلام: "...فَإِنَّ الطِّبَّ كَالشَّرْعِ وُضِعَ لِجَلْبِ مَصَالِحِ السَّلَامَةِ وَالْعَافِيَةِ، وَلِدَرْءِ مَفَاسِدِ الْمَعَاطِبِ وَالْأَسْقَامِ... وَالَّذِي وَضَعَ الشَّرْعَ هُوَ الَّذِي وَضَعَ الطِّبَّ، فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَوْضُوعٌ لِجَلْبِ مَصَالِحَ وَدَرْءِ مَفَاسِدِهِمْ."[3].

وقال الإمام النووي: "وَأَمَّا الْعُلُومُ الْعَقْلِيَّةُ، فَمِنْهَا مَا هُوَ فَرْضُ كِفَايَةٍ، كَالطِّبِّ وَالْحِسَابِ الْمُحْتَاجِ إِلَيْهِ، وَقِسْمَةِ الْوَصَايَا وَالْمَوَارِيثِ، قَالَ الْغَزَالِيُّ: وَلَا يُسْتَبْعَدُ عَدُّ الطِّبِّ وَالْحِسَابِ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَةِ، فَإِنَّ الْحِرَفَ وَالصِّنَاعَاتِ الَّتِي لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْهَا فِي مَعَايِشِهِمْ، كَالْفِلَاحَةِ فَرْضُ كِفَايَةٍ، فَالطِّبُّ وَالْحِسَابُ أَوْلَى"[4].

وقد نص على حكم وجوب عمارة الأرض الإمام الجصاص عند تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود:٦١)، "﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ يَعْنِي أَمَرَكُمْ مِنْ عِمَارَتِهَا بِمَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ وَفِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى

١- الأصفهاني، الحسين بن محمد المعروف بالراغب (المتوفى ٥٠٢هـ)، **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، تحقيق: أبو اليزيد أبو زيد العجمي، القاهرة، دار السلام – ١٤٢٨ هـ، ٢٠٠٧م، ص٨٢.

٢- الغزالي، محمد أبو حامد (المتوفى ٥٠٥هـ)، **إحياء علوم الدين**، دار المعرفة، بيروت، ج١، ص١٦.

٣- ابن عبد السلام، عز الدين (المتوفى: ٦٦٠هـ)، **قواعد الأحكام في مصالح الأنام**، تعليق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٤١٤هـ ١٩٩١م، ج١، ص٦.

٤- النووي، يحيى بن شرف (المتوفى ٦٧٦ هـ)، **روضة الطالبين وعمدة المفتين**، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٢هـ ، ١٩٩١م، ج١٠، ص٢٢٣.

وُجُوبِ عِمَارَةِ الْأَرْضِ لِلزِّرَاعَةِ وَالْغِرَاسِ وَالْأَبْنِيَةِ، وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ مَعْنَاهُ: أَعْمَرَكُمْ بِأَنْ جَعَلَهَا لَكُمْ طُولَ أَعْمَارِكُمْ وَهَذَا كَقَوْلِ الْقَائِلِ أَعَمَرْتُك دَارِي هَذِهِ يَعْنِي مَلَّكْتُك طُولَ عُمْرِك"[1].

ونقل القرطبي حكم الوجوب عن بعض السلف فقال: " زيد بن أسلم: أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه فيها من بناء مساكن، وغرس أشجار. وقيل: المعنى ألهمكم عمارتها من الحرث والغرس وحفر الأنهار وغيرها. الثالثة- قال ابن عربي قال بعض علماء الشافعية: الاستعمار طلب العمارة، والطلب المطلق من الله تعالى على الوجوب"[2].

فالتعمير والبناء والطب والحساب وإصلاح أحوال المجتمع هي من فروض الكفايات لا تسقط إلا بالقيام الكافي بهذا المطلوب، وإلا أَثِمَتْ الأمة بتركها هذا الفرض، والناظر في أحوال المسلمين اليوم يرى حجم النقص والتقصير الكبير في واجب عمارة الأرض وضياع حضارتهم، خصوصاً في المجالات المدنية؛ كالصناعات والتقنيات الدقيقة ومجال الاتصالات وتقنية المعلومات ومجال المكتشفات الطبية والعلمية المختلفة، ولا أظن أحداً يخالف في عِظم أهمية هذه العلوم الدنيوية للمسلمين فبها تكون عمارة الأرض وازدهارها، والانتفاع بثرواتها واستثمار خيراتها، وكل مسلم مأمور باستعمار هذه الأرض وعمارتها مع المحافظة على استمرار صلاحها.

ثم إن عمارة الأرض من أعظم مقاصد الشريعة، قال الإمام ابن عاشور بأن:" مِنْ أَكْبَرِ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ الِانْتِفَاعُ بِالثَّرْوَةِ الْعَامَّةِ بَيْنَ أَفْرَادِ الْأُمَّةِ عَلَى وُجُوهٍ جَامِعَةٍ بَيْنَ رَعْيِ الْمَنْفَعَةِ الْعَامَّةِ وَرَعْيِ الْوِجْدَانِ الْخَاصِّ، وَذَلِكَ بِمُرَاعَاةِ الْعَدْلِ مَعَ الَّذِي كَدَّ لِجَمْعِ الْمَالِ وَكَسْبِهِ، وَمُرَاعَاةِ الْإِحْسَانِ لِلَّذِي بَطَّأَ بِهِ جُهْدُهُ، وَهَذَا الْمَقْصِدُ مِنْ أَشْرَفِ الْمَقَاصِدِ التَّشْرِيعِيَّةِ."[3].

وقال الشيخ علال الفاسي: "والمقصد العام للشريعة الإسلامية هو عمارة الأرض، وحفظ نظام التعايش فيها، واستمرار صلاحها بصلاح المستخلفين فيها، وقيامهم بما كلفوا به من عدل واستقامة ومن صلاح في العقل وفي العمل وإصلاح في الأرض واستنباط لخيراتها وتدبير لمنافع الجميع"[4].

١- الجصاص، أحمد بن علي (المتوفى٣٧٠هـ)، **أحكام القرآن**، تحقيق: محمد صادق القمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ، ج٤، ص٣٧٨.

٢- القرطبي، محمد بن أحمد (المتوفى٦٧١هـ)، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: أحمد البردوني وغيره، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م، ج٩، ص٥٦.

٣- - ابن عاشور، محمد الطاهر (المتوفى١٣٩٣هـ)، **تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد**، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٤م، ج٣، ص٤٥.

٤- الفاسي، علال (المتوفى ١٣٩٤هـ)، **مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها**، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الخامسة،١٩٩٣م، ص٤٥-٤٦.

المبحث الثاني: العُمران في ضوء القرآن، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: مفهوم العُمران في القرآن

لقد جاء في أكثر من أية تعزيز القيام بالعُمران وعمارة الأرض، كقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٢٩)، وقد قال البيضاوي في تفسير هذه الآية: "والخليفة من يخلف غيره وينوب منابه، والهاء فيه للمبالغة[١]، والمراد به آدم عليه الصلاة والسلام، لأنه كان خليفة الله في أرضه، وكذلك كل نبي استخلفه الله في عمارة الأرض وسياسة الناس وتكميل نفوسهم وتنفيذ أمره فيهم"[٢]، وقال ابن عاشور مؤكداً معنى العمارة: "فَالْخَلِيفَةُ آدَمُ وَخَلَفِيَّتُهُ قِيَامُهُ بِتَنْفِيذِ مُرَادِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ تَعْمِيرِ الْأَرْضِ بِالْإِلْهَامِ أَوْ بِالْوَحْيِ وَتَلْقِينِ ذُرِّيَّتِهِ مُرَادَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ هَذَا الْعَالَمِ الْأَرْضِيِّ"[٣].

وقال الله تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود:٦١)، قال الطبري مؤكداً على معنى العمارة في الآية: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ يقول: "وجعلكم عُمَّارًا فيها، فكان المعنى فيه: أسكنكم فيها أيام حياتكم"[٤].

وقال البيضاوي:"﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ عمركم فيها واستبقاكم من العمر، أو أقدركم على عمارتها وأمركم بها، وقيل هو من العمري بمعنى أعمركم فيها دياركم ويرثها منكم بعد انصرام أعماركم، أو جعلكم معمرين دياركم تسكنونها مدة عمركم ثم تتركونها لغيركم"[٥].

وفي هذه الآية المركزية في نشوء مفهوم العُمران ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود:٦١)، نتبين ثلاثةَ مكونات أساسية:

١- قال ابن قيم الجوزية: "وَحَقِيقَة اللَّفْظَة أن الْخَلِيفَة هُوَ الَّذِي يخلف الذَّاهِب أَي يَجِيء بعده يُقَال خلف فلَان فلَاناً وأصلها خليف بِغَيْر هَاء لأنها فعيل بِمَعْنى فَاعل كالعليم والقدير فَدخلت التَّاء للْمُبَالَغَة فِي الْوَصْف كراوية وعلامة وَلِهَذَا جُمع جَمْعَ فعيل فَقيل: خلفاء؛ كشريف وشرفاء وكريم وكرماء، وَمن راعى لَفظه بعد دُخُول التَّاء عَلَيْهِ جمعَه مَعَه على فعائل فَقَالَ: خلائف؛ كعقيلة وعقائل وظريفة وظرائف، وَكِلَاهُمَا ورد بِهِ الْقُرْآن، هَذَا قَول جمَاعَة من النُّحَاة، وَالصَّوَاب أن التَّاء إِنَّمَا دخلت فِيهَا للعدل عَن الْوَصْف إلى الاسْم فَإِن الْكَلِمَة صفة فِي الاصل ثمَّ أجريت مجْرى الأسماء فالحقت التَّاء؛ لذَلِك كَمَا قَالُوا: نطيحة بِالتَّاءِ فَإِذا أجروها صفة قَالُوا: شَاة نطيح كما يَقُولُونَ: كَفّ خضيب وإلا فَلَا معنى للْمُبَالَغَة فِي خَليفَة حَتَّى تلحقها تَاء الْمُبَالغَة وَالله أعْلَم، وَقَوله ودعته الى دينه الدعاة جمع دَاع كقاض قُضَاة ورام ورماة وإضافتهم إليه للاختصاص أَي الدعاة المخصوصون بِهِ الَّذين يدعونَ إلى دينه وعبادته ومعرفته ومحبته" [ابن القيم الجوزية محمد بن أبي بكر (المتوفى ٧٥١هـ)، **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ج١، ص١٥٣].

٢- البيضاوي، ناصر الدين عبد الله بن عمر (المتوفى ٦٨٥ هـ)، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، ج١، ص٦٨.

٣- ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، ج١، ص٣٩٩.

٤ – الطبري، محمد بن جرير (المتوفى ٣١٠هـ)، **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م، ج١٥، ص٣٦٨.

٥ – البيضاوي، عبدالله بن عمر، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، ج٣، ص١٣٩.

١- فعل العُمران (أو الاستعمار).

٢- المقصود بهذا الفعل (الإنسان بصيغة الجمع).

٣- فضاء هذا الفعل (الأرض بما تحويه وما يعلوها)[١].

ولقد حث النبي صلى الله عليه وسلم أبلغ الحث على بذل الجهد واستفراغ الوسع في إعمار الأرض حتى في أحلك الظروف، فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ"[٢]، وحثّ على الزراعة وتشجير الأرض منعاً للتلوّث؛ ونشراً للخضرة والخير، حيث قال صلى الله عليه وسلم: "مَا مِنْ مُسلِمٍ يَغْرِسُ غَرْساً أَوْ يَزْرَعُ زَرْعاً فَيأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ إِلاَّ كانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ"[٣].

وفي سياق الحفاظ على البيئة الطبيعية وما فيها من حيوان وطير وردت جملة من نصوص الوحي تؤكد هذه المعاني، وهذا يعتبر من سبق الإسلام إلى المناداة بمفهوم المحميات الطبيعية بصورة أكثر شمولاً مما تعارف عليه العالَمُ اليوم، من حيث إنّه لا يقتصر على حماية الطير أو الحيوانات فحسب، بل يشمل أموراً كثيرة؛ لذلك جعل الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة المنوّرة محمية طبيعية؛ حينما قال: " إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ، وَإِنِّي أُحَرِّمُ الْمَدِينَةَ، حَرَامٌ مَا بَيْنَ حَرَّتَيْهَا[٤] وَحِمَاهَا كُلُّهُ، لَا يُخْتَلَى خَلاهَا[٥]، وَلا يُنَفَّرُ صَيْدُهَا، وَلا تُلْتَقَطُ لُقَطَتُهَا، إِلا لِمَنْ أَشَارَ بِهَا، وَلا تُقْطَعُ مِنْهَا شَجَرَةٌ إِلا أَنْ يَعْلِفَ رَجُلٌ بَعِيرَهُ، وَلا يُحْمَلُ فِيهَا السِّلاحُ لِقِتَالٍ"[٦].

---

١ - رمضان، يحي، "**القرآن والعمران قراءة في المفاهيم المؤسسة**"، بحث منشور في الملتقى الفكري للإبداع، تاريخ النشر: ٢٢-٠٨-٢٠٠٩، على الرابط التالي:

http://www.almultaka.org/site.php?id=768&idC=1&idSC=1

٢ - ابن حنبل، أحمد (المتوفى٢٤١هـ)، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وغيره، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م برقم: ١٢٩٨١، ج٣، ص١٩١، والبخاري، محمد بن إسماعيل، **الأدب المفرد**، تحقيق: سمير بن أمين الزهيري، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م، باب استصناع المال، برقم: ٤٧٩، ج١، ص١٦٨.

٣ - البخاري، محمد بن إسماعيل(المتوفى٢٥٦هـ)، **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري)**، تحقيق: محمد زهير بن ناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ، برقم: ٢٣٢٠، ج٢، ص٨١٧.

٤- **وحرَّتا المدينة**، هما: حرَّة واقم (وهي الشرقية)، وحرَّة وَبَرَة (وهي الغربية) انتهى [تعليق الأرناؤوط وغيره].

٥- لا يختلى **خلاها** - الخلا مقصور: النبات الرطب الرقيق مادام رطباً وأختلاؤه قطعة.انتهى [الساعاتي، أحمد بن عبد الرحمن (المتوفى١٣٧٨هـ)، **الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ومعه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني**، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، د.ت، ج٢٣، ص١٢٤].

٦- ابن حنيل، أحمد في المسند، برقم: ٩٥٩، ج٢، ص ٢٦٨.

فأسُس العُمران البشري والحضاري في القُرآن الكريم هي: الإنسان، والمكان (الأرض)، والرِّسالة السماوية، ونقرأ ذلك في دعاء نبي الله إبراهيم – عليْه السَّلام – لمَّا قال :﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم:٣٧)، حيثُ أسكنَ إبراهيمُ عليْه السَّلام أهلَه وابنَه إسماعيل بوادي أمِّ القُرى بجوار الكعبة، وذلك بوحي من الله تعالى، ثمَّ دعا ربَّه أن يهيِّئ لذريَّته ما يعينهم على القيام بعبادة الله تعالى، من أمْنٍ بجوار البيت الحرام، وتعارُف ومحبَّة بينهم وبين الوافِدين عليْهم مستقبلاً، وأن يرزُقهم من الثمرات ما يحقق حاجتهم من الطعام والعيش الكريم، وبذلك وضع إبراهيم عليه السلام الأسُس المادِّيَّة والروحيَّة للعمران البشري، وكأني به عليْه الصَّلاة السَّلام لمَّا أسكن ذريَّته بجوار البيت ودعَا لهم بمقوِّمات الحياة الضروريَّة التي توجب شُكْر الله وعبادته، يضع تخطيطًا مستقبليًّا لعُمران أمَّة مسلمة ذات رسالة حضاريَّة متميّزة[١]، ولذلك جاءت رسالة نبيّنا عليه الصلاة والسلام الخاتمة في سياق دعْوة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السَّلام الذي خطَّط لعُمران الأمَّة المسلمة، فكان اهتمامه صلَّى الله عليْه وسلَّم أوَّلاً ببناء الإنسان قبل العُمران، وإعداده إعدادًا قويًّا بالإيمان والقرآن، حتَّى إذا أنشأ هذا الإنسانُ عُمرانًا مادِّيًّا أنشأه على التَّقوى والصلاح، فيكون عمرانًا حضاريًّا حقًّا، يكفل لأهلِه الحياة الطيِّبة في الدنيا والآخرة، لأن العُمران الحضاري مقصد عام من مقاصد استخلاف الإنسان في الأرض، فقد استخلف الله الإنسان في الأرض واستعْمره فيها؛ لغاية كبرى هي تحقيق العبودية لله تعالى، بمفهومها الشَّامل وفْق ما أمر وشرع، وإقامة العدْل والإصْلاح في الأرْض، وهو مقتضى قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ (هود: ٦١)، ومعنى (وَاسْتَعْمَرَكُمْ) في الآية: أي جعلكم عمَّارها، أو طلب منكم أن تعمروها، بصيغة الجمع مما يلفت الانتباه إلى علاقة الإنسان بمن يقوم معه بمهمة الاستعمار، وهي كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (يونس:١٤)، قال محمد رشيد رضا: "وَقَدْ عَلَّلَ هَذَا الِاسْتِخْلَافَ عِنْدَ الْإِخْبَارِ الْأَوَّلِ بِهِ هُنَا بِقَوْلِهِ: ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أَيْ لِنَرَى وَنُشَاهِدَ أَيَّ عَمَلٍ تَعْمَلُونَ فِي خِلَافَتِكُمْ، فَنُجَازِيَكُمْ بِهِ بِمُقْتَضَى سُنَّتِنَا فِيمَنْ قَبْلَكُمْ، فَإِنَّ هَذِهِ الْخِلَافَةَ إِنَّمَا جَعَلَهَا لَكُمْ لِإِقَامَةِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ فِي الْأَرْضِ وَتَطْهِيرِهَا مِنْ رِجْسِ الشِّرْكِ وَالْفِسْقِ، لَا لِمُجَرَّدِ التَّمَتُّعِ بِلَذَّةِ الْمُلْكِ"[٢]، واستِعْمار الإنسان في الأرض من لدن الخالق جلّ جلاله يعْني: تفويضَه لعمارتها بإصْلاح حالها لتصير قابلةً للانتفاع بها.

ولكي نقوم بالعمران الحقيقي في الأرض؛ لا بدّ من بيان المفاهيم المتعاضدة لمفهوم العمران وتحقيقها وفق ما جاء في القرآن، فالعُمران "بالمفهوم القرآني لا يمكن أن يُفهَم في أبعاده المختلفة والمتعاضدة في آن من دون فهم مفهوم الاستخلاف، وهذا المفهوم بدوره لا يعطينا كل دلالاته ولا تنماز طبيعته من دون استحضار مفهوم التسخير،

١- البوزي، محمد، "**التقوى والعمران الحضاري في القرآن**" بحث منشور في موقع الألوكة الالكترونية، تاريخ الإضافة: ٢٠٠٩/٦/٣٠ ميلادي – ١٤٣٠/٧/٧ هجري، على الرابط التالي:

/http://www.alukah.net/publications_competitions/0/6447

٢- علي رضا، محمد رشيد، (**تفسير المنار**)، ج١١، ص٢٥٩.

وهذان المفهومان (الاستخلافُ والتسخير) بما هما مفهومان مكونان للمفهوم الأعمِّ (العمران) لا يدركان ومفهومُهما الأعمُّ من دون النظر إلى المفهوم المقابل مفهومِ (الفساد) وهذا باعتباره انحرافاً عن الأصل"[1].

المطلب الثاني: مفهوم الاستخلاف وشروطه

ذكر الراغب الأصفهاني أن: "الفعل المختص بالإنسان ثلاثة أشياء:

١- **عمارة الأرض** المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود:٦١) وذلك تحصيل ما به تزجية المعاش لنفسه ولغيره.

٢- **وعبادته** المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦) وذلك هو الامتثال للباري – عز وجل – في أوامره ونواهيه.

٣- **وخلافته** المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف:١٢٩)"[2].

فعمارة الأرض ومكونات الفعل العُمراني تتأسس في ثلاثة أمور:

١) **علاقة الإنسان بربه**، حيث علاقة العبودية تربط الإنسان بخالقه بما هي تسبيح وتقديس، يتنزه فيها الخالق عن الشريك والمثيل.

٢) **وعلاقة الإنسان بالإنسان**، ومن يقوم معه بمهمة الاستعمار فقد كان الحديث في القرآن بصيغة الجمع: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، وتأخذ الرحمة في العمران الاستخلافي موقعاً مركزياً حيث تتجاوز كل الأبعاد إلى كونها القيمة المهيمنة على كل القيم عدلاً ومساواة وحرية، والرحمة هي علاقة تواصل وعطاء بين البشر.

٣) **وعلاقة الإنسان بالأرض**، إذ الأرض أصل الحياة الطبيعية للبشر، ولا قوام للناس إلا بها وبمن عليها من النسل، وكل من أفسدها كان ساعياً لهدم ركن من أركان العمران سواء كان ذلك متعلقاً بالزروع والثمار أو في غيرها مما يستهدف اليوم الأرض من انتهاكات تمس جوهر وجودها[3].

قال الطاهر بن عاشور: "وَالْمُرَادُ بِالِاسْتِخْلَافِ: الِاسْتِخْلَافُ عَنِ اللَّهِ فِي مُلْكِ الْأَرْضِ. وَالِاسْتِخْلَافُ إِقَامَةُ الْخَلِيفَةِ، فَالسِّينُ وَالتَّاءُ لِتَأْكِيدِ الْفِعْلِ مِثْلَ اسْتَجَابَ لَهُ، أَيْ جَعَلَهُمْ أَحْرَارًا غَالِبِينَ وَمُؤَسِّسِينَ مُلْكًا فِي الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ."[4].

ويُستفاد من ذلك أنَّ الإنسان مستخْلَف في الأرض ومكلَّف بعمارتها وفْق شرْع الله، وعلى هدْي أنبيائِه عليْهم الصَّلاة والسَّلام واستِخْلاف الإنسان في الأرْض تشريف وتكليف له بتحمُّل الأمانة العُظْمى الَّتي لم تحتمِلْها السَّماوات والأرض؛ لذا كان الأحقُّ بالاستِخْلاف هم المؤمنون الصَّالِحون المصْلِحون، تبعًا لسنَّة الله في الأُمَم،

١- رمضان، يحيى، بحث: "**القرآن والعمران قراءة في المفاهيم المؤسسة**" مرجع سابق.

٢- الأصفهاني، الحسين بن محمد المعروف بالراغب، **الذريعة إلى مكارم الشريعة** ،ص٨٢.

٣- رمضان، يحيى، بحث: "**القرآن والعمران قراءة في المفاهيم المؤسسة**" مرجع سابق.

٤- ابن عاشور، محمد الطاهر **التحرير والتنوير**،ج٩، ص٦٢.

فكلّما أهلك الله أمّة طاغية، جعل أمّةَ المؤمنين خلائفَ في الأرض، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (يونس:١٤)، ومن معاني (الخليفة) التناوب في الوجود بين بني البشر حيث "يَخْلُف بَعْضهمْ بَعْضًا قَرْنًا بَعْد قَرْن وَجِيلًا بَعْد جِيل"[١]، والخلافة بهذا المعنى تتساوق والعمران من حيث كونه عُمْراً، ومن المعاني التي يأخذها الجذر اللغوي (ع م ر) الدلالة على المدة الزمنية، قال الراغب الأصفهاني: "والعَمْرُ والعُمُرُ: اسم لمدة عمارة البدن بالحياة، فهو دون البقاء، فإذا قيل: طال عُمُرُهُ، فمعناه: عِمَارَةُ بدنِهِ بروحه... والتعمير: إعطاء العمر بالفعل، أو بالقول على سبيل الدعاء."[٢].

شروط الاستخلاف:

المتأمل في فقه العمارة في الإسلام يجده فقهاً راقياً يتناول الإعمار من أبعاده كلها وعلى كل المستويات؛ فقد بدأ بإعمار أهم كائن في الكون والذي لا شك أنه أكبر مؤثر في ما حوله من كائنات ألا وهو الإنسان، فاهتم بإعمار نفس الإنسان أولاً، وتزكية إيمانه قبل كل شيء وتعزيز روح التضحية في النفس الإنسانية حتى تسمو إلى عوالم الإيثار، وقد أخبر الباري سبحانه وتعالى أن هذا الإعمار لا يعدله حتى إعمار أفضل بيت من بيوت الله في الأرض؛ قال الله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (التوبة: ١٩)؛ فالإعمار المعنوي للنفوس هو الأساس الذي ينبني عليه إعمار الأرض، ولا يمكن أن نؤسس لحضارة إنسانية وارفة الظلال إلا بإعمار وتزكية الجانب الخلقي والإنساني فيها، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (الروم: ٩).

وإذا كانت غاية استخلاف الإنسان في الأرض هي عبادةَ الله تعالى وتعمير الأرض وإصلاحها، فالتعمير والعُمران لا يكون إلاّ وفق الشرع الحكيم والهداية الربّانية، وهو مُحتوى **الإيمان والعمل الصّالح** اللّذيْن جعلهما الله شرْطًا للتّمكين والاستِخْلاف في الأرْض؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ (النور: ٥٥).

وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات من هذه الأمة الذين تحقق فيهم هذان الوصفان معاً وهما: الإيمان بالله ورسوله، والعمل الصالح الطيب؛ ليستخلفنّهم في الأرض أي: ليجعلنّهم خلفاء الأرض، الذين لهم السيطرة فيها،

١- ابن كثير، إسماعيل بن عمر(المتوفى٧٧٤هـ)، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، ج١، ص١٢٤.

٢- الأصفهاني، الراغب. **المفردات في غريب القرآن**، مرجع سابق، ص٥٨٦.

ونفوذ الكلمة، كما استخلف داود وسليمان عليهما السلام على الأرض، والآيات تدل على أن طاعة الله بالإيمان به، والعلم الصالح سبب للقوة والاستخلاف في الأرض ونفوذ الكلمة، فلا عمران إذن من دون إيمان وعبادة.

ولا بدَّ من الاستمرار على الحق والإيمان والعمل الصالح حتى يأتي النصر ويتمَّ الاستخلاف والتمكين، أما الأمن فلا يكون إلا بعد خوف، قال الشيخ سعيد حوى: "والذي نلاحظه أن كثيراً من المسلمين إذا جاء الخوف تركوا وانعزلوا، وأن كثيرين ليسوا متحققين بشروط الاستخلاف، ومن ثم نرى أن النصر يبطئ على حملة دعوة الله، والرجاء من أهل الإسلام أن يتحققوا ويستمروا."[١].

إن العمران الحضاري إذا قام على الحقِّ وعلى التَّقْوى والصَّلاح يباركه الله، ويَحيا به أهلُه حياة طيِّبة، وإذا قام على الشِّرْك والظلم والطغيان والاستِكْبار في الأرض، دمَّره الله كعُمران أقوامِ هود وصالح وفرعون وأمثالهم، فعُمران هؤلاء الكفَّار خراب ودمار؛ لأنَّه استِخْراب في الأرْض وليس استِعْمارًا لها، فحقَّ عليهم القول بالدَّمار بمقتضى سنَّة الله في الأمم الكافِرة؛ كما قال الله تعالى في شأْن عاد وثمود: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ. إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البِلادِ. وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ. وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ. الَّذِينَ طَغَوْا فِي البِلادِ. فَأَكْثَرُوا فِيهَا الفَسَادَ. فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ (الفجر:٦ – ١٣)، وهكذا نجد أنَّ العُمران الذي لم يكن معه الإيمان والتَّقْوى مآلُه الدمار والخراب، ومآل أهلِه الهلاك والخسران، وتلك سنَّة الله في الأمم والحضارات.

قال الشيخ سعيد حوى: "وأن يمكِّن الدِّين المرتضى وهو الإسلام- وتمكينه تثبيته وتوطيده- وأن يؤمن سربهم، ويزيل عنهم الخوف الذي كانوا عليه، وقد فعل جل جلاله، ونسأله سبحانه أن يفعل، فنحن الآن في غربة الإسلام، ونحن في خوف وضعف"[٢].

أما إذا انتفى الإيمان ولم تكن الاستجابة لدعوة التوحيد ولم يكن هناك شكر على النعمة؛ فإنه ولو تمَّ تحقيق العمران الحضاري، فإن نهايته إلى الزوال والبوار ولو بعد حين، ومن أجمل ما صوَّره الله تعالى (سبأ) حينما استجاب أهلها لدعوة التوحيد، وأقلعوا عن عبادة الشمس، كانت لهم حضارة وعُمران وازدهار في اليمن، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ (سبأ:١٥)، ولكنهم لما أعرضوا وعادوا إلى عبادة الشمس، ولم يشكروا الله عز وجل، ولم يرعوا النعمة بل فرَّطوا فيها، انقلبت النعمة إلى نقمة، وضاعت حضارتهم، ودُمِّر عمرانهم، وأرسل الله عليهم سيل العَرِم: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ، ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ (سبأ:١٧،١٦)، فمزَّقهم الله شذر مذر، حتى أصبحوا حكايات وأحاديث،

١- حوى، سعيد (المتوفى١٤٠٩هـ)، **الأساس في التفسير**، دار السلام، القاهرة، الطبعة السادسة ١٤٢٤هـ، ج٧، ص٣٨١١.

٢- حوى، سعيد، **الأساس في التفسير**، ج٧، ص٣٨٠٢.

وضَربَتِ العَرَبُ بِهِم المثَلَ فِي الفُرْقة فقالوا: "ذَهَبُوا أَيْدِي سَبَأ"[1] أي مُتفرّقين، قال الله تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (سبأ:١٩).

وما فتئ القرآنُ ينبّه المكذّبين برسالة نبيّنا محمَّد صلَّى الله عليْه وسلَّم ويدْعوهم إلى النَّظر والاعتِبار بعاقبة سلفهم في الكفر وتكْذيب الرسل، الذين لم تنفعهم قوَّتُهم ولم ينفعهم عمرانُهم ولا ما بنَوْه من قصور ومصانع، وما زرعوا وغرسوا من زروع وأشجار، إذ كل ذلك صار آثارًا وأطلالاً، تذكِّر النَّاظرين والمعتبرين بمصير تاركيها، قال الله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ. وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ. كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ. فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ (الدخان: ٢٥-٢٩).

أي: كم ترك فرعون وقومه من القبط بعد مهلكهم وتغريق الله إياهم من بساتين وأشجار وهي الجنات، وعيون وينابيع وزروع، ومقام وعُمران كريم وبناء ومكان مرموق، ومن أروع ما قيل في هذه الآيات ما "في ظلال القرآن":

"ويبدأ المشهد بصور النعيم الذي كانوا فيه يرفلون جنات وعيون وزروع ومكان مرموق، ينالون فيه الاحترام والتكريم. ونعمة يلتذونها ويطعمونها ويعيشون فيها مسرورين محبورين، ثم ينزع هذا كله منهم أو ينزعون منه، ويرثه قوم آخرون"[2].

لما أهلك الله هؤلاء العصاة،لم تبكِ عليهمُ السماء والأرضُ ولا أهلهما، بل كلٌّ استبشر بهلاكِهم وتلَفِهم، حتى السماء والأرض؛ لأنهم ما خَلَّفوا مِن آثارهم إلا ما يُسَوِّد وُجوههم، ويُوجِب عليهم المقْتَ مِن العالمين، فهذه هي علةُ ذلك الحكم أنهم كفروا بأنعم الله، وأَبَوْا أن يسمعوا مِن رسولهم؛ فكان مَصْرَعُهم في هَوانٍ بعد الاستِعلاء والاستكبار، وقد ذكر اللهُ تعالى لنا في كتابه ذلك؛ لإيقاظِ ما في قلوبنا وفِطَرِنا وعُقولنا مِن التسْوية بين المتماثلَيْنِ في الحكم؛ فنُدرك أنه عذَّب أولئك لعصيانهم، وأنَّ كل مَن عصاه ناله العذابُ، والحكمُ عامٌّ شاملٌ على كل مَن يسلك سبيلهم، ويتَّصَف بصِفَتِهم، فنَبَّه سبحانه وتعالى عبادَه على هذا الاستدلال، وأن الحكم الخاص يتعدّى إلى العموم لعموم العلة؛ كما قال الله تعالى عقب إخباره عن عقوبات الأمم المكذِّبة لرُسُلِهم وما حلَّ بهم: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ (القمر:٤٣)، وقال عقب إخباره عن عقوبة قوم عادٍ حين رأَوا العارضَ في السماء فقالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ (الأحقاف:٢٤)، فقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ. تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ. وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ

١- "وضَربَتِ العَرَبُ بِهِم المثَلَ فِي الفُرْقة لأَنه لَمَّا أَذْهَبَ اللَّهُ عَنْهُمْ جَنَّتَهم وغَرَّقَ مكانَهم تَبَدَّدُوا فِي الْبِلَادِ. التَّهْذِيبِ: وَقَوْلُهُمْ ذَهَبُوا أَيْدِي سَبَأ أَي مُتَفَرِّقين، شُبِّهُوا بأَهلِ سبأ لَمَّا مزَّقهم اللهُ فِي الأَرض كلَّ مُمَزَّقٍ، فأَخذ كلُّ طائفةٍ مِنْهُمْ طَرِيقًا عَلَى حِدةٍ. واليَدُ: الطَّرِيق" [ابن منظور، محمد بن مكرم (المتوفى٧١١هـ)، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ، ج١، ص٩٤].

٢- قطب، سيد (المتوفى ١٩٦٦م)، **في ظلال القرآن**، دار الشروق، الطبعة الثانية والثلاثون، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م، ج٥، ص٣٢١٤.

مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (الأحقاف:٢٤-٢٦).

وكما يكون التهديد للعصاة بالعقوبات الشديدة في الآخرة، كذلك يكون التهديد في الدنيا بآفاتها وهو الوقوع في الجوع والخوف، قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ (النحل:١١٢)، "فَهَذِهِ الْقَرْيَةُ الَّتِي ضَرَبَ اللَّهُ بِهَا هَذَا الْمَثَلَ يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ شَيْئًا مَفْرُوضًا وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ قَرْيَةً مُعَيَّنَةً، وَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ الثَّانِي فَتِلْكَ الْقَرْيَةُ يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ مَكَّةَ أَوْ غيرها، وَالْأَكْثَرُونَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّهَا مَكَّةُ، وَالْأَقْرَبُ أَنَّهَا غَيْرُ مَكَّةَ لِأَنَّهَا ضُرِبَتْ مَثَلًا لِمَكَّةَ، وَمَثَلُ مَكَّةَ يَكُونُ غَيْرَ مَكَّةَ."[١].

وهكذا استفاد العلماء من آيات الاستِخْلاف: أنَّ عُمران الأرض مأْمور به شرعًا، وأنّه من مقاصِد الشَّريعة الكُبْرى؛ بل هو مقصدُها العام، فهذه المقاصد تفيد العُمران في المباني والمعاني معاً، لأن العُمران المادي إذا لم يقترن بالجانب الإيماني والأخلاقي تُعَرِّض الأممَ للفساد والدمار.

المطلب الثالث: مفهوم التسخير واستثماره

أما مفهوم التسخير فقد قال الخليل بن أحمد الفراهيدي: "أما السُّخْرةُ فما تَسخَّرْتَ من خادم ودابة بلا أجر ولا ثمن. تقول: هم لك سُخْرَةً وسُخْرِيّاً."[٢].

لقد كرّم الله تعالى الإنسان بتسخير الكون له بلا أجر ولا ثمن، وتسخير ما فيها لمنفعته وتمكينه من دوره الذي خلقه من أجله، حيث سخّر له ما هو أكبر منه خلْقاً كالسماوات والأرضين، وأعظم منه جسماً كالأنعام، فقال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ (لقمان:٢٠).

قال أبو السعود: "والمرادُ بالتَّسخير إمَّا جعلُ المسخَّرِ بحيثُ ينفعُ المسخَّرَ له أعمُّ من أنْ يكونَ مُنقاداً له يتصرَّفُ فيه كيفَ يشاءُ ويستعملُه حسبما يريدُ كعامَّة ما في الأرضِ من الأشياءِ المسخَّرة للإنسانِ المستعملةِ له من الجمادِ والحيوانِ أو لا يكون كذلك بل يكونُ سبباً لحصولِ مرادِه من غير أن يكون له دخلٌ في استعمالِه كجميعِ ما في السَّمواتِ من الأشياءِ التي نِيطتْ بها مصالحُ العبادِ معاشاً ومعادا وما جعلُه منقاداً للأمرِ مذللاً على أنَّ معنى

١- الرازي، محمد بن عمر الملقب بفخر الدين(المتوفى ٦٠٦هـ)، **مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ، ج٢٠، ص٢٧٨-٢٧٩.

٢- الفراهيدي، الخليل بن أحمد (المتوفى:١٧٠هـ)، **كتاب العين**، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، ج٤، ص١٩٦.

(لكُم) لأجلِكم فإنَّ جميعَ ما في السمواتِ والأرض من الكائنات مسخر لله تعالى مستتبعةٌ لمنافعِ الخلقِ وما يستعملُه الإنسانُ حسبما يشاءُ وإن كان مسخَّراً له بحسبِ الظَّاهرِ فهو في الحقيقةِ مسخَّرٌ لله تعالى"[1].

قال الطاهر بن عاشور: "وَمَعْنَى (سَخَّرَ لَكُمْ) لِأَجْلِكُمْ لِأَنَّ مِنْ جُمْلَةِ ذَلِكَ التَّسْخِيرِ مَا هُوَ مَنَافِعُ لَنَا مِنَ الْأَمْطَارِ وَالرِّيَاحِ وَنُورِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَمَوَاقِيتِ الْبُرُوجِ وَالْمَنَازِلِ وَالِاتِّجَاهِ بِهَا. وَالْخِطَابُ فِي (أَلَمْ تَرَوْا) يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لِجَمِيعِ النَّاسِ مُؤْمِنِهِمْ وَمُشْرِكِهِمْ لِأَنَّهُ امْتِنَانٌ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لِخُصُوصِ الْمُشْرِكِينَ بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ اسْتِدْلَالٌ.

وَالِاسْتِفْهَامُ فِي (أَلَمْ تَرَوْا) تَقْرِيرٌ أَوْ إِنْكَارٌ لِعَدَمِ الرُّؤْيَةِ بِتَنْزِيلِهِمْ مَنْزِلَةَ مَنْ لَمْ يَرَوْا آثَارَ ذَلِكَ التَّسْخِيرِ لِعَدَمِ انْتِفَاعِهِمْ بِهَا فِي إِثْبَاتِ الْوَحْدَانِيَّةِ. وَالرُّؤْيَةُ بَصَرِيَّةٌ. وَرُؤْيَةُ التَّسْخِيرِ رُؤْيَةُ آثَارِهِ وَدَلَائِلِهِ. وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الرُّؤْيَةُ عِلْمِيَّةً كَذَلِكَ، وَالْخِطَابُ لِلْمُشْرِكِينَ كَمَا فِي قَوْلِهِ (خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها)."[2].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجاثية:١٣)، مَا فِي السَّمَاوَاتِ: فَإِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ اللَّهِ وَفِيهَا فَوَائِدُ لِعِبَادِهِ، وَمَا فِي الْأَرْضِ: أي ذلَّل لكم ما فيها من دابة وشجر وجبل وجماد وسفن، "فَلَا أَصْلَبَ مِنَ الْحَجَرِ وَلَا أَحَدَّ مِنَ الْحَدِيدِ وَلَا أَكْثَرَ هَيْبَةً مِنَ النَّارِ، وَقَدْ سَخَّرَهَا لَكُمْ وَسَخَّرَ الْحَيَوَانَاتِ أَيْضًا حَتَّى يُنْتَفَعَ بِهَا مِنْ حَيْثُ الْأَكْلِ وَالرُّكُوبِ وَالْحَمْلِ عَلَيْهَا وَالِانْتِفَاعِ بِالنَّظَرِ إِلَيْهَا، فَلَوْلَا أَنْ سَخَّرَ اللَّهُ تَعَالَى الْإِبِلَ وَالْبَقَرَ مَعَ قُوَّتِهِمَا حَتَّى يُذَلِّلَهُمَا الضَّعِيفُ مِنَ النَّاسِ وَيَتَمَكَّنَ مِنْهُمَا لَمَا كَانَ ذَلِكَ نِعْمَةً."[3].

فتسخير كلّ تلك المظاهر الكونية والمخلوقات لا يتوقف عند حدود الانتفاع المادي فحسب، بل يلمح الإمام البقاعي غرضاً آخر له، فيقول: "الآيات في ذكر الكواكب والقمر والشمس إلى آيات ذكر التسخير لهن نحو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ...﴾ (الأنعام:٩٧) ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (النحل:١٢) ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ (ابراهيم:٣٣) ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (يونس:٥) ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾ (النجم:٤٩) كل ذلك ليصرف تعالى خوف الخلق ورجاءهم عن الأفلاك والنجوم المسخرة إلى المسخِّر القاهر فوق عباده الذي استوى على جميعها"[4]، فالتسخير يقود إلى مبدأ التوحيد الأعظم الذي هو ثمرة هذا الإعمار الواعي للكون، ولأنّه نعمة تذكِّر بالمنعِم سبحانه وتعالى.

١- العمادي، أبو السعود (المتوفى ٩٨٢هـ)، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، ج٧، ص٧٣-٧٤.

٢- ابن عاشور، محمد الطاهر (المتوفى١٣٩٣هـ)، **التحرير والتنوير**، ج٢١، ص١٧٤.

٣ - الرازي، فخرالدين، **مفاتيح الغيب**، ج٢٣، ص٢٤٧.

٤ - البقاعي، إبراهيم بن عمر (المتوفى٨٨٥هـ)، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت، ج٨، ص٥٣٣.

لقد كان "تسخير الكون للإنسان لأجل وجوده، وقد بُني الكون بالقدرة الإلهية على قوانين كميّة وكيفية تناسب تماماً الكيان الإنساني في وجوده ابتداء، فكأنّما هو صنع لاستقبال الإنسان، فتسخير الشمس والقمر إشارة إلى إعداد الكون كمّياً؛ ليناسب وجود الإنسان، وتسخير الليل والنّهار إشارة إلى إعداده كيفيّاً لذلك"[1].

ذكر الله تعالى في القرآن الكريم ما يتعلق بالليل والنهار إما بصيغة التسخير، وإما بذكر الغاية من هذا التسخير، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ (الإسراء:١٩).

قال ابن كثير: "يمتن تعالى على خلقه بآياته العظام، فمنها مخالفته بين الليل والنهار، ليسكنوا في الليل وينتشروا في النهار للمعايش والصناعات والأعمال والأسفار، وليعلموا عدد الأيام والجُمَع والشهور والأعوام، ويعرفوا مضيَّ الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجارات وغير ذلك؛ ولهذا قال: ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: في معايشكم وأسفاركم ونحو ذلك ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ فإنه لو كان الزمان كله نسقاً واحداً وأسلوباً متساوياً لما عرف شيء من ذلك"[2].

إن الكون مسخَّر لك أيها الإنسان، واستثمار ما سخّره الله تعالى يعدّ من فروض الإعمار، وهذه المسخّرات ينبغي أن تكون عوناً للإنسان في أداء مهامّه في الأرض، لا أن تكون عبئاً ثقيلاً له تبعات عليه، وعالم الفلك يعلم بأن التسخير يشمل كذلك دوران الأرض حول الشمس في مدار مناسب تمامًا وما يترتب عليه من إمداد الأرض بالطاقة والجاذبية وتنظيم الليل والنهار والماء والهواء، وذلك بحيث أن هذا المدار لو اتسع قليلًا لتجمَّدت الأرض ومن عليها، ولو انكمش قليلًا لاحترقت الأرض وقاطنيها، كما يعلم أن دوران القمر حول الأرض له أهمية بالغة في استقرار الأرض ودرجة حرارتها حتى تكون مستعدة لاستقرار الحياة فيها، أما النجوم فلها دور عظيم في الملاحة بأنواعها على مستوى الأرض، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (النحل:١٦) وللنجوم دور أعظم في الحفاظ على استقرار الكون وموازنة التوسع المستمر بتجاذبها المتبادل بعضها لبعض.

ويبشِّر الله تعالى بمخلوقات قادمة لا يعلمها الذين تلقوا الخطاب أول مرة، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل:٨)، ولكن الكيفية التي سيخلق بها تلك المخلوقات ليست هي الكيفية التي خلق بها الخيل والبغال والحمير، إذ إن للإنسان دوراً فيها، وعلى سبيل المثال السيارة والقطار والطائرة، فالإنسان عانى معاناة شديدة قبل أكثر من أربعة آلاف سنة فصنع العجلة، ثم طوَّرها ولا يزال يطورها، واستخدم معها الحيوان، ثم استخدم الوقود، ثم البخار، ثم وصل إلى الكهرباء والذَّرَّة، فصنع الإنسان الأشياء الجديدة وفق سنن الله وقوانينه، إنه سَخَّر هذه السنن والقوانين لعمارة الأرض، فكما زرع النباتات؛ سخَّر النار

---

١ – القحطاني، مسفر بن علي، "**سؤال التسخير الكوني للإنسان: رؤية مقاصدية**"، بحث منشور في موقع مجلة الإحياء المغربية الصادرة عن الرابطة المحمدية للعلماء، ندوات، على الرابط التالي:
http://www.alihyaa.ma/Article.aspx?C=5812

٢ – ابن كثير، إسماعيل بن عمر، **تفسير القرآن العظيم**، ج٥، ص٤٦.

والطَّاقة، كل ذلك من قوانين الله وسننه، قال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ، أَأَنْتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾ (الواقعة: ٧١-٧٢).

ولا أعتقد أن هذا التسخير والتطويع الذي كثُر ذكره في آيات عديدة من القرآن الكريم؛ إلاّ شاحِذٌ رئيس لاكتشاف نواميس الكون ومعرفة مجالات التسخير فيه، وكيفية خدمة الإنسان بذلك، والعقل الذي يُخاطب بهذا الأمر الدقيق البالغ في تحديد مهامه الصالحة والإصلاحية يجب أن لا يضيّع وقته في مجالات لا تفيد؛ بل ينبغي أن يتفتّق فكره بالمخترعات والمكتشفات الحياتية التي تسهل عليه البناء، والحصول على الغذاء، وبلوغ السماء، وتوفير الرخاء، وقطع المفاوز والصحراء، وتيسير المصاعب وتقليل المخاوف والأعباء، وغيرها مما يشغل بني الإنسان ويرفّهه في حياته[1].

وهكذا تقوم العلاقة بين الإنسان وتسخير الكون على التوافق والانسجام، فمنذ أن هبط الإنسان إلى الأرض ارتبط تطوره العقلي والحضاري والعمراني بحسن توافقه وتكيُّفه مع البيئة والكون، وأي فكر أو حركة تجديد تهمِل هذا التسخير وتحذِّر منه بحجة ذمّ الدنيا والإقبال على الآخرة يجعل الأمة في حالة ارتكاس، ويضيع به المسلم دنياه وآخرته معاً، ويُهمِّش وحدانية الله تعالى الذي سخّر الكون له، بل يترك شأن الاستخلاف لغير عباد الله المصلِحين.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يُؤْتَى بِالعَبْدِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ سَمْعًا وَبَصَرًا وَمَالًا وَوَلَدًا، وَسَخَّرْتُ لَكَ الأَنْعَامَ وَالحَرْثَ، وَتَرَكْتُكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ فَكُنْتَ تَظُنُّ أَنَّكَ مُلَاقِي يَوْمَكَ هَذَا؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ لَهُ: اليَوْمَ أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي"[2].

وهذا يعني أن السؤال يشمل أيضاً ما سخّره الله تعالى للإنسان ولم يستفد منه؛ فالتقصير في الانتفاع مما سخّر الله تعالى صفة من يكذّب بلقاء الله يوم القيامة ولا يهتدي إلى وحدانيته، فحاجتنا لثقافة السؤال تعني الثورة وعدم الاستجابة لراية الاستسلام للجوابات الجاهزة والمعلبة منذ دهور، فالعقل التساؤلي يبحث عن الإقناع العلمي، ويقود المجتمع نحو حراك حضاري وعُمراني يشعل جذوة النور في الزوايا المعتمة، وهذه المنهجية التساؤلية استقاها علماء الإسلام من القرآن الكريم والسنة النبوية، في حين كانت من المحرمات لدى أوربا خلال القرون الوسطى، مما كبَّلت أذهان المتعلمين والمتفلسفين أن يطرحوا أسئلتهم لنزال العقول في مواجهة المعتقدات التقليدية وجواباتها على إشكالات الدين والسياسة والأخلاق، وما انفكّت تلك القيود إلا من خلال معارك التغيير في أوربا والتي قادها أمثال: بيكون وسبينوزا وديكارت ولوك ودي باسيرانو وتولند وفولتير، نحو الضد المتفلّت على الماضي المستبد

---

١ – القحطاني، مسفر بن علي، بحث: "**سؤال التسخير الكوني للإنسان: رؤية مقاصدية**".

٢– الترمذي، محمد بن عيسى(المتوفى: ٢٧٩هـ)، **سنن الترمذي**، تحقيق: أحمد محمد شاكر وغيره، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٥ هـ، ١٩٧٥م، باب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه برقم: (٢٤٢٨)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ.

والمتخلف، فقد شبَّهوا التاريخ كله بورقة ملأى بالطيّات المزيفة، ويجب محو هذه الطيات والعودة إلى الصفحة البيضاء[1].

المطلب الرابع: مفهوم الفساد ومظاهره في الأرض

قال ابن منظور: "الفساد نقيض الصلاح... وتفاسد القوم: تدابروا وقطعوا الأرحام... واستفسد السلطان قائده إذا أساء إليه حتى استعصى عليه، والمفسدة خلاف المصلحة، والاستفساد خلاف الاستصلاح"[2].

وقال الراغب الأصفهاني: "الفساد خروج الشيء عن الاعتدال، قليلاً كان الخروج عنه أو كثيراً، ويضادّه الصّلاح، ويستعمل ذلك في النّفس، والبدن، والأشياء الخارجة عن الاستقامة، يقال: فَسَدَ فَسَاداً وفُسُوداً، وأَفْسَدَهُ غيره."[3].

ومن خلال ما أورده علماء اللغة نخلص إلى أن وجود خلل أو نقص في أداء الشيء، يمكن أن نقول عنه إنه فسد، ففساد الآلة بخرابها، والجسم بمرضه وضعفه، والثمرة بفقدان طعمها، والدولة بنكوصها عن أداء مهماتها، وذلك بعدم انسجام أعضاء مجتمعها، وتنافر مجاميعه، وفقدان الأمن والوحدة الاجتماعية اللذين يحفظان تماسكه، فالفساد أمر مرفوض ومستهجن، لذا يرفض الإنسان صفة الفساد في الأشياء، وينفر منها ويسعى إلى إصلاحها إن أمكنه.

لقد انبنت علاقة الإنسان والكون على التوافق والانسجام، فلا يحقّ للإنسان الإساءة إلى الكون، وتدميره، وما شرع الإسلام من العقوبات والحدود، أو حتى الجهاد في سبيل الله، إلا للمحافظة على عمارة الأرض واستقرارها، وبتر يد العابثين بها وبأمن الناس فيها من المفسِدين، "قال القفال: والجملة أن الفساد ضد الصلاح، فكما أن الصلاح يتناول جميع أقسام البِرّ، فالفساد يتناول جميع أقسام الإثم، فمن عمل بغير أمر الله، وحكم في عباده بالظلم فهو مفسِد."[4]، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ (البقرة:٢٠٥).

قال أبو حيان: ﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ هَذَا عِلَّةُ سَعْيِهِ، وَالْحَامِلُ لَهُ عَلَى السَّعْيِ فِي الْأَرْضِ، وَالْفَسَادُ ضِدُّ الصَّلَاحِ، وَهُوَ مُعَانَدَةُ اللَّهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود:٦٠) وَالْفَسَادُ يَكُونُ بِأَنْوَاعٍ مِنَ: الْجَوْرِ، وَالْقَتْلِ، وَالنَّهْبِ، وَالسَّبْيِ،

١- هازار، بول، **أزمة الوعي الأوربي ١٦٨٠–١٧١٥**، ترجمة يوسف عاصي، مراجعة بسام بركة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م، ص١٤٩–١٩١.

٢- ابن منظور، محمد بن مكرم، **لسان العرب**، ج٣، ص٣٣٥.

٣- الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، ص٦٣٦.

٤- النعماني، عمر بن علي (المتوفى ٧٧٥هـ)، **اللباب في علوم الكتاب**، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وغيره، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ،١٩٩٨م، ج٢٠، ص٣٢٢.

ويكون: بالكفر... الْإِفْسَادَ شَامِلٌ يَدْخُلُ تَحْتَهُ إِهْلَاكُ الْحَرْثِ وَالنَّسْلِ، وَلَكِنَّهُ خَصَّهُمَا بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُمَا أَعْظَمُ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي عِمَارَةِ الدُّنْيَا، فَكَانَ إفسادهما غاية الإفساد"[1].

ومصطلح (الفساد) في القرآن الكريم لا يدل على ما هو متعارف عليه في أذهان عامة الناس، من أنّ كلمة الفساد تعني عدم الالتزام الشرعي، بل ينقله تارة عن لسان العصاة والظالمين في وصفهم لحركة الأنبياء والصالحين، كما في وصف أتباع فرعون لدعوة موسى عليه السلام وحركته الإصلاحية، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ (الأعراف:١٢٧)، أو وصف فرعون لدعوة كليم الله موسى عليه السلام بقوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ (غافر:٢٦)، أو قول بلقيس في وصف عمل الملوك: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (النمل:٣٤).

وتارة يستعملها القرآن الكريم معبراً عن حكم الشريعة في وصف الطغاة أو الخارجين عن الشريعة، أو في التحذير من عمل يؤدي إلى الفساد، كقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص:٨٣)، وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (الأنفال:٧٣)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ (البقرة: ٢٠٥).

ومما يلفت النظر أن هناك شبه تلازم في القرآن الكريم بين مصطلح (الفساد) وبين كلمة (الأرض)، وإذا قمنا بعملية إحصائية بسيطة، فسنجد أن الكتاب الحكيم استخدم كلمة (الفساد) وتصريفاتها بحدود خمسين مرة، وفي جميع هذه الاستخدامات كان يرد اسم الأرض أو الإشارة إليها، ما عدا إحدى عشرة مرة لم يرد فيها ذكر الأرض؛ لأن الاستعمال كان في معرض وصف عمل المفسدين وعاقبته، كقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (النمل:١٤)، أو في معرض الدعاء: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ (العنكبوت:٣٠)، أو في معرض بيان إحاطة العلم الإلهي: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ (يونس:٤٠).

نخلص من ذلك أن ظاهرة الفساد التي يشير إليها القرآن الكريم ليست ظاهرة فردية أو شخصية، أو محدودة بمجتمع ضيق أو حالة معينة خاصة، بل هي ظاهرة تعم المجتمع الإنساني بغالبيته في الكرة الأرضية كلها.

من مظاهر الفساد في الأرض:

١- أبوحيان، محمد بن يوسف (المتوفى ٧٤٥هـ)، **البحر المحيط في التفسير**، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، الطبعة ١٤٢٠ هـ، ج٢، ص٣٢٩-٣٣٠.

إن من مصداق هذا الفساد في الأرض قديماً؛ دعوات قوم لوط (الجنسي المثلي) وأعمال قوم شعيب (في انهيار الاقتصاد وتطفيف الكيل والميزان)، فالقرآن يعتبر أن عمل قوم لوط من أعمال الإفساد في الأرض، وهذا العمل الشائن كما يؤدي إلى الأمراض الفتاكة المختلفة، كذلك يكون سبباً في تهديد النسل واستمرار الوجود البشري.

أما حديثاً فمشكلة (الزواج المثلي) الذي أصبح في حضارة اليوم معْلماً بارزاً وخطيراً، ولا سيما في الحضارة الغربية التي تحكم العالم اليوم، والجنسية المثلية التي يريد الغرب أن يقننها كظاهرة إنسانية مقبولة، يعتبرها القرآن من نماذج الإفساد في الأرض، لأنه يسبب في انهيار المجتمع وتفككه.

ومن نماذج الإفساد في الأرض الغبن والتدليس والغش (سوء الإنتاج)، والسرقة في البيع، وعدم الصدق في العقود، وغياب الأمانة في الأسواق، إضافة إلى الجشع والظلم والاعتداء وعدم الثقة بين أفراد المجتمع، مما يؤدي إلى زعزعة الروابط الاجتماعية ويهدد استقراره.

ومن نماذج الإفساد أيضاً فقدان الأمن، ونقض العهود والمواثيق والعقود، وهذه من صفات اليهود، لذلك يعطي القرآن الكريم صفة نقض العهد مع صفة الإفساد لليهود، فقد غدرَ يهودُ بني قينقاع بعد غزوة بدرٍ؛ والمعاهدة لَمْ يمضِ عليها إلا سنةٌ واحدةٌ، وغدرتْ يهود بني النضير بعد غزوةِ أُحُدٍ، وغدرت بنو قريظة عهدَهم في أشدِّ الظروف وأحلَكِها على المسلمين يوم الأحزاب، قال الله تعالى مجلّيًا حقيقة عُهُودهم ومَواثيقهم: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ﴾ (الأنفال: ٥٦)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة: ١٠٠) وفي ذلك إشارة إلى سجية اليهود كأمة في تعاملها مع باقي الأمم ونقضهم للمواثيق، وما يستلزم ذلك من اعتداء وفتنة وحروب، فيكونون بذلك أهل لصفة الفساد والإفساد في الأرض، وفي مقابل ذلك يفرض القرآن الكريم على المجتمع المسلم الالتزام بالعهود التي تبرمها مع الآخرين حتى مع الأفراد والدوّل المخالفين بالعقيدة؛ لأن الالتزام بالعهود يضمن استمرار المجتمع واستقرار الأرض.

وقال الله تعالى عن إفساد اليهود: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (المائدة: ٦٤)، وقال سبحانه: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (الإسراء:٤).

أفسد اليهود في الأرض مرتين مع علوٍ كبيرٍ فيهما، فالواو حرف عطف يُقرنُ العُلوَ مع الفسادِ في المرتين الإثنتين.

لكننا نجد أن مصطلح (الفساد) يقابله في القرآن الكريم مصطلح (الإصلاح)، وقد اقترن كثير من الآيات التي تذكر الفساد في الأرض بموضوع الإصلاح، فمثلاً قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف:٥٦)، وقال أيضاً: ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (النمل:٤٨) فيفهم من ذلك وأن هناك عملية إفساد وخراب لهذا الصلاح والتوازن والاتساق، وفي ذلك أيضاً إشارة إلى دور الأنبياء والمرسلين في حفظ الاعتدال والاستقامة والتوازن في المجتمعات الإنسانية.

ولما كان للإنسان حاجات رئيسة وحقوقاً أساسية لا يمكن للمجتمع أن يستمر نحو أهدافه بدونها، بغض النظر عن الهوية والفكر السياسي، كالغذاء والهواء والسكن والأمن والدواء، جعل القرآن الكريم أيّ تهديد لهذه الحاجات أو خلل في تلبيتها أو كفايتها إفساداً في الأرض وتعدّياً على تلك الحقوق.

ولذلك يطرح القرآن الكريم قضية فرعون وهامان نموذجاً للأنظمة المستبدة التي أفسدت في الأرض، والتي تكون فيها أجهزة الدولة ومقدَّراتها في خدمة شخص الحاكم الظالم لا الأمة، بل تصبح الأمة بكل جهودها وقيَمها أسيرة ما يضفيه الحاكم عليها من قيم، وتُعتبر نزوات الحاكم قرارات، قال الله تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (غافر:٢٩)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص:٤)، شِيَعًا جمع شيعة، وهي الطائفة التي لها استقلالها الخاص، والمفروض في المِمَلَّك أنْ يُسوّي بين رعيته، فلا تأخذ طبقة أو جماعة حظوه عن الأخرى، أما فرعون فقد جعل الناس طوائف، ثم يسلّط بعضها على بعض، ويُسخِّر بعضها لبعض، وهكذا تشير الآية إلى أن الأنظمة المستبدة تساهم في تمزيق المجتمع ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾، وعدم تماسكه، ويبث الفرقة ويشيع الاختلافات الواسعة فيه، كما تلمح أن منهج هذه الأنظمة الظالمة والمفسدة هي الاعتماد على طائفة في ضرب الطائفة الأخرى; كي يبقى الحاكم الظالم فوق الجميع.

كما نبَّهَ القرآن الكريم إلى حقيقة اجتماعية وسياسية مهمة، ولفت الأنظار إلى أثر الأنظمة السياسية الظالمة في تخريب وحدة المجتمعات وضعف روابطها وتمزيقها، فقال صراحة بأن سبب فساد المجتمعات هو الأنظمة السياسية المستبدة وطغيان الظلمة: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ. فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ (الفجر:١١-١٢)، وقال جل جلاله: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ (الكهف:٩٤)، فالخلاص من الحكام الظلمة طريق إلى سعادة المجتمع وعُمرانه واستقراره وازدهاره.

المبحث الثالث: عُمران المساكن والحضارات، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: عمارة البيوت والمساكن

تزخر آيات القرآن الكريم بالعديد من المصطلحات المعمارية والعمرانية، منها: البيت والمنزل والمسكن والبلد والقصر والمدينة والبناء والبنيان وغير ذلك:

فالبيت: يكون لأسرة تبيت فيه، وتفيد الاستقرار قال الله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب:٣٣].

والمنزل: هو الموقع ومكان النزول، قال الله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٩].

"**والدَّارُ**: الْمَحَلُّ يَجْمَعُ الْبِنَاءَ وَالْعَرْصَةَ، أُنثى؛ قَالَ ابْنُ جِنِّي: هِيَ مِنْ دَارَ يَدُورُ لِكَثْرَةِ حَرَكَاتِ النَّاسِ فِيهَا... وأَما الدَّارُ فَاسْمٌ جَامِعٌ لِلْعَرْصَةِ وَالْبِنَاءِ والمحَلَّةِ. وكلُّ مَوْضِعٍ حَلَّ بِهِ قَوْمٌ، فَهُوَ دَارُهُمْ. وَالدُّنْيَا دَارُ الفَناء، وَالْآخِرَةُ دَارُ القَرار ودَارُ السَّلَام"[1]، قال الله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر:٣٩].

والبناء والبنيان: وهو كل منشأ مرتفع عن الأرض، والدليل أن البناء معناه الاتفاع إلى أعلى لقوله سبحانه وتعالى فيما يحكي عن فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ [غافر:٣٦]، ويؤكد ذلك أيضاً أن البناء يكون طبقات إلى أعلى حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ [الزمر:٢٠]، ومرادف البناء البنيان، ويتضح من وصف القرآن أن البنيان منشأ متكامل، له قواعد وسقف وبالتالي جدران، قال الله تعالى: ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل:٢٦]، وقد صنف الفقيه المصري عبد الله بن عبد الحكم (المتوفى٢١٤هـ) كتابه: (البنيان)، كما صنَّف الفقيه التونسي المالكي محمد بن إبراهيم اللخمي الشهير بابن الرامي البنّاء كتابه: (الإعلان بأحكام البنيان).

وكلمة **المسكن** مشتقة من فعل (سكن) والسكون هو الهدوء والسكينة والطمأنينة والأمان والاستقرار، وقد حدد القرآن الكريم الوظيفة العامة للبيت والمسكن فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل:٨٠]، قال ابن عاشور: " وَهَذِهِ نِعْمَةُ الْإِلْهَامِ إِلَى اتِّخَاذِ الْمَسَاكِنِ وَذَلِكَ أَصْلُ حِفْظِ النَّوْعِ مِنْ غَوَائِلِ حَوَادِثِ الْجَوِّ مِنْ شِدَّةِ بَرْدٍ أَوْ حَرٍّ وَمِنْ غَوَائِلِ السِّبَاعِ وَالْهَوَامِ. وَهِيَ أَيْضًا أَصْلُ الْحَضَارَةِ وَالتَّمَدُّنِ لِأَنَّ الْبُلْدَانَ وَمَنَازِلَ الْقَبَائِلِ تَتَقَوَّمُ مِنِ اجْتِمَاعِ الْبُيُوتِ. وَأَيْضًا تَتَقَوَّمُ مِنْ مُجْتَمَعِ الْحِلَلِ وَالْخِيَامِ"[2].

---

١ - ابن منظور، لسان العرب، ج٤، ص٢٩٨.

٢ - ابن عاشور، محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**، ج١٤، ص٢٣٧.

كما تعني السكن السكينة هنا أيضاً والوقاية من الضوضاء وعزل الأصوات مع توفير الراحة النفسية والاجتماعية والتمتع بالخصوصية، كل ذلك فى إطار منهج الوسطية فى البناء والأثاث الذي هو مكون أساسي فى تصميم الوحدة السكنية التي لها حرمتها، فمن الأدب عدم دخول البيت إلا بإذن أصحابه؛ قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ. فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [النور:٢٧].

والطراز الإسلامي في العمران كان مفتوحاً إلى الأعلى ليتمكن المسلم من الدعاء، والنظر إلى السماء، حيث الغيث والماء، "ولعل أبرز ما يميز الأنماط المعمارية الإسلامية، أنها تتمحور في بنائها وواجهاتها وهندستها ومرتفقاتها حول وجهة، أو بتعبير أدق نحو القبلة (المسجد الحرام)، أما في الأنماط العمرانية المعاصرة، أو في عمران المدن الحديثة، فلا وجهة ولا قبلة، ويصعب على الإنسان المسلم، وقد يجد عناء شديداً في تحديد القبلة، إذا خرج من المسجد وعبر الشارع، ودخل المباني المعاصرة"[١].

لذا يفضل أن توجه المباني إلى القبلة، ليساعد على أداء الصلوات، إذ الغاية من عمارة الأرض هو عبادة الله تعالى، كما أن العمارة تمثل واجهة صادقة لثقافة المجتمع، والعمارة التي لا توجه إلى القبلة يفقد مجتمعه أهم عوامل تميز شخصيته.

وإعمار الأرض "يتمثل فى الامتدادات العمرانية أفقياً أكثر منه رأسياً، وقد ثبت من نتائج البحوث الاجتماعية التى أجريت فى مدن الغرب أن ارتفاع المباني السكنية إذا زاد عن أربعة أو خمسة أدوار فإنه يسبب العديد من المشاكل البيئية والاجتماعية والأمنية والسلوكية والأخلاقية التى ينهى عنها الإسلام فتصبح الامتدادات الأفقية هى الأقرب والأنسب لتفادي هذه المشاكل"[٢]، ويؤكد هذا حديث نَافِعِ بْنِ عَبْدِ الْحَارِثِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مِنْ سَعَادَةِ الْمَرْءِ:الْجَارُ الصَّالِحُ، وَالْمَرْكَبُ الْهَنِيءُ، وَالْمَسْكَنُ الْوَاسِعُ)[٣].

فالمساكن الواسعة حيث الهواء الطلق العليل، والظل الظليل، والشجر الجميل، والماء السلسبيل، وكل هذه من صفات الجنة، قال الله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ. فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ. وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ. وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ. وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ. وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ [الواقعة:٢٧-٣٢]، والظل الممدود من المتع التي أعدها الله لعباده المتقين،

١ - عزب، خالد محمد مصطفى، **تخطيط وعمارة المدن الإسلامية**، في تقديم: عمر عبيد حسنه، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م، كتاب الأمة، العدد ٥٨، السنة السابعة عشر، ص٢٣.

٢ - إبراهيم، عبد الباقي، "**رحلة البحث عن الذات وأصول العمارة فى الإسلام**- (النشأة - العقيدة - المنهج - النظرية) (سيرة ذاتية)، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م، ص١٦.

٣ - رواه أحمد في المسند، برقم: ١٥٣٧٢.

وفي الحديث أن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لاَ يَقْطَعُهَا»[1].

وحِرْصُ القرآن الكريم على لفْتِ الأنظار إلى أهمية الظلال في عمليات التصميم البيئي له شقان:

١-للتأكيد على أهمية العلاقة بين العوامل البيئية والعمران والبنيان الإسلامي.

٢-يؤكد أن هذا الحرص على أهمية الظلال يتفق مع القياسات العلمية الحديثة، والتي توضح أثر توفير الظلال في خفض درجات الحرارة داخل المباني والفراغات الخارجية المكشوفة[2].

وكانت المنازل في صدر الإسلام تفي بالضرورات، ولا تمتد إلى الكمالات، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «رَأَيْتُنِي مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَنَيْتُ بِيَدِي بَيْتًا يُكِنُّنِي مِنَ المطَرِ، وَيُظِلُّنِي مِنَ الشَّمْسِ، مَا أَعَانَنِي عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ»[3].

أما التطاول في البنيان فله مساوئ جمة، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن أمارات الساعة فقال: (وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ)[4].

ذلك لأن الامتدادات الرأسية والتطاول فى البنيان قد أفقد المجتمع الإسلامي الروابط الاجتماعية ومضمون الجوار ومنه جار المسجد، الذي حث عليها النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً، أضف إلى ذلك ظهور كثير من الأمراض النفسية والمعاناة في الحياة، والإعمار من جانب آخر لا يكتمل إلا بإضفاء الجانب الجمالي بالتنسيق وزرع الأشجار والعناية بها لما في ذلك من منافع صحية وبيئية ونفسية سواء أكان هذا الزرع مثمراً أو غير مثمر قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا)[5].

كما أن في قوله تعالى: {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [النور:٣٥] إشارة واضحة إلى الاهتمام بالنور والضياء والتمديدات الكهربائية فى العمارة، إذ بالنور والضياء يصبح المنزل كالكوكب الدريّ جمالاً.

١- رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، برقم: ٣٢٥١، ج٤، ص١١٩.

٢- وزيري، يحيى، العمران والبنيان في منظور الإسلام، دولة الكويت، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ،٢٠٠٨م، ص١٠٥.

٣- رواه البخاري، في كتاب الاستئذان، باب ما جاء في البناء، برقم: ٦٣٠٢.

٤- رواه مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، في كتاب الإيمان، باب: معرفة الْإِيمَانِ، وَالْإِسْلَامِ، والقَدَرِ وَعَلَامَةِ السَّاعَةِ، حديث رقم:١.

٥- رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد.

وأشار الإسلام إلى ضرورة احترام الجار فيما يقام بجواره من بنيان فقال صلى الله عليه وسلم: (وَلَا تَرْفَعْ بِنَاءَكَ فَوْقَ بِنَائِهِ فَتَسُدَّ عَلَيْهِ الرِّيحَ)[1].

ويلاحظ من هذا الحديث أنه يحث الجار الجديد أن لا يحجب الريح عن مبنى الجار القائم قبله إلا بإذنه، وعلى أن الجار القائم لا يمنع أن يضع جاره الجديد خشبة فى جداره أيضاً؛ قال رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لاَ يَمْنَعْ جَارٌ جَارَهُ أَنْ يَغْرِزَ خَشَبَهُ فِي جِدَارِهِ)[2]، كما يلاحظ فيه "احترام الجار الجديد لخصوصية الجار القائم قبله والذي سبق بالبناء، ويعني ذلك أن من سبق بالبناء يكون له الفضل الأول ويحظى بالاعتبار عند جاره الذي يلحقه بالبناء، وهكذا تكون الأفضلية لمن سبق بالبناء في منهج التنمية العمرانية لوحدة الجوار وحتى لا تتناثر المباني وتترك الأرض فضاء بينها مما يقوض علاقات الجوار ولا يعززها بين أفراد المجتمع فى وحدة الجوار الأمر الذي يستدعي تطبيق مبدأ الأفضلية لمن يسبق بالبناء بالتتابع والتلاصق حتى تنمو المنطقة العمرانية نمواً عضوياً متكامل الأوصال"[3].

وقد بيّن الباري جل جلاله للمستضعفين بأن هناك مراغم كثيرة وسعة يمكنكم أن تهاجروا وتبتعدوا عن جار السوء وتجدوا سكناً بعيداً ترغمون به من كان يستضعفكم؛ قال الله تعالى: {وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} [النساء: ١٠٠].

قال ابن عاشور: "وَالْمُرَاغَمُ اسْمُ مَكَانٍ مِنْ رَاغَمَ إِذَا ذَهَبَ فِي الْأَرْضِ، وَفِعْلُ رَاغَمَ مُشْتَقٌّ مِنَ الرَّغَامِ- بِفَتْحِ الرَّاءِ- وَهُوَ التُّرَابُ. أَوْ هُوَ مِنْ رَاغَمَ غَيْرَهُ إِذَا غَلَبَهُ وَقَهَرَهُ، وَلَعَلَّ أَصْلَهُ أَنَّهُ أَبْقَاهُ عَلَى الرَّغَامِ، أَيِ التُّرَابِ، أَيْ يَجِدُ مَكَانًا يُرْغِمُ فِيهِ مَنْ أَرْغَمَهُ، أَيْ يَغْلِبُ فِيهِ قَوْمَهُ بِاسْتِقْلَالِهِ عَنْهُمْ... وَوَصْفُ الْمُرَاغَمِ بِالْكَثِيرِ لِأَنَّهُ أُرِيدَ بِهِ جِنْسُ الْأَمْكِنَةِ. وَالسَّعَةُ ضِدُّ الضِّيقِ، وَهِيَ حَقِيقَةُ اتِّسَاعِ الْأَمْكِنَةِ، وَتُطْلَقُ عَلَى رَفَاهِيَةِ الْعَيْشِ، فَهِيَ سَعَةٌ مَجَازِيَّةٌ"[4].

قال المراغي: " مراغماً: مكاناً للهجرة ومأوى يصيب فيه الخير والسعة فيرغم بذلك أنوف من كانوا مستضعفين له"[5]، الأمر الذي هو من مسئوليات الفرد القادر على ذلك والمجتمع الذي يهيء له السبيل فيما يسمى بالخطط الإرشادية التي تحدد فيها الطرق والجسور والمرافق والخدمات العامة فى ظل الشروط البيئية التي تستند إلى المبدأ الإسلامي لا ضرر ولا ضرار.

١- أخرجه الطبراني، **المعجم الكبير**، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الثانية، د.ت، برقم: ١٠١٤، ج١٩، ٤١٩.

٢- رواه **البخاري**، في كتاب المظالم والغصب، باب لاَ يَمْنَعْ جَارٌ جَارَهُ أَنْ يَغْرِزَ خَشَبَهُ فِي جِدَارِهِ، برقم ٢٤٦٣.

٣- إبراهيم، عبد الباقي، "**رحلة البحث عن الذات وأصول العمارة فى الإسلام**، ص١٩.

٤- ابن عاشور، محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**، ج٥، ص١٨٠.

٥- المراغي، أحمد بن مصطفى (المتوفى ١٣٧١هـ)، **تفسير المراغي**، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى، ١٣٦٥هـ، ١٩٤٦م، ج٥، ص١٣١.

المطلب الثاني: نماذج من حضارات عُمرانية بائدة

لقد ذكر لنا القرآن الكريم عدة حضارات معمارية كبرى حادت عن الصواب وبطرت معيشتها وطغت في البلاد وعاثت في الأرض الفساد، فصبَّ الله عليهم سوط عذاب، قال الله تعالى عنهم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ. إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ. وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ. وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ. الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ. فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ. فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ. إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ (الفجر:٦-١٤).

فما هي الممارسات المعمارية الفاسدة التي ارتكبتها هذه الحضارات حتى استحقت صبَّ العذاب؟

أولاً: حضارة عاد:

قصَّ الله تعالى خبر عاد وسُمِّيت سورةٌ في القرآن باسم نبيّها: هود عليه السلام، كما سُمِّيت سورةٌ أخرى باسم مكانهم: (الأحقاف)، وذكر الله خبرهم في مواضعَ عِدَّةٍ من كتابه؛ ليَعْتَبِرَ بمصرعِهم المؤمنون، وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾، فكانوا أعظمَ أهل زمانهم خَلْقًا، وأطولَهم أبدانًا، وأشدَّهم بطشًا، وكانت مساكنُهم عظيمةً جداً، ذوات أعمِدةٍ ضِخامٍ وبُنيانٍ شاهق ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ عماد بيوت الشعر، والمراد بها القبيلة، وطول عماد بيوتها: كناية عن طول أجسامهم وقوتهم، ويجوز أن يكون المراد بـ {الْعِمَادِ} الأعلام التي بنوْها في طرُقهم ليهتدي بها المسافرون، حيث يبنُون في كل مكانٍ مُرتفِعٍ بُنيانًا مُحكَمًا باهرًا هائلاً، يفعلون ذلك عبثًا لا للحاجة إليها؛ بل لمجرَّد اللهو وإظهار القوة والمفاخَرة، فأنكر عليهم نبيُّهم ذلك وقال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ (الشعراء:١٢٨)؛ لأنه تضييعٌ للزمان، وإجهادٌ للأبدان في غير فائدة، وإشغالٌ بما لا يُجدِي لا في الدنيا ولا في الآخرة، ومظهر عُجْبٍ وكبرياء، واتخذوا لهم بروجًا مُشيَّدةً ليُخلَّدوا في الدنيا بزعمهم، قال الله سبحانه: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ (الشعراء:١٢٩)، فكانوا يبنون ما لا يسكُنون، ويُؤمِّلون ما لا يُدرِكون، وفتحَ الله عليهم أبوابَ رزقِهِ؛ فزادَت أموالُهم؛ وكثُرت أبناؤُهم؛ وأنبتَ الله لهم الزروعَ؛ وفجَّر لهم العيون، وقال لهم نبيُّهم مذكراً لهم بنعم الله عليهم: ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ. وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (الشعراء: ١٣٣-١٣٤)، وأمرَهم أن يتذكَّروا نعمَ الله فيشكروا الله ليفوزوا برِضاه؛ وسعادة الدنيا والآخرة: ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف:٦٩)، فقابَلوا نعمَ الله بالجُحود والنُّكران، وعبَدوا الأصنام، وهم أولُ من عبدَها بعد الطوفان، قال الله عنهم: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ (الأعراف:٦٩)، ودعاهم هودٌ عليه السلام إلى عبادة الله وحده ونبذ الأوثان: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (الأعراف:٦٥) فاستخفُّوا بنبيّهم ورمَوه بالجُنون، وقالوا له: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ (هود:٥٤) أي: أصابكَ بجنونٍ في عقلك، وسخِروا منه وقالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ (الأعراف:٦٦)، وصارَحوه بكفرهم وعنادهم؛ وقالوا له: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (هود:٥٣)، وردُّوا دعوتَه واستكبَروا عنها، وقالوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ (الشعراء:١٣٦) وظلَموا ضعفاءهم؛ بغِلظتهم وجبروتهم، قال الله سبحانه: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ (الشعراء: ١٣٠)، وسخِروا من نبيّهم وبما دعاهم إليه، وقالوا له: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (الأحقاف:٢٢) فاستدرَجهم الله من حيث لا يعلمون، وأمسكَ عنهم القَطْرَ فأجدبَت

الأرضُ، وساقَ الله سحابةً لما رأوها مُستقبلةً أودِيَتِهم استبشَروا؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الأحقاف:٢٤) سلَّطها عليهم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيامٍ حُسُومًا دائمةً لم تنقطِع لحظةً، وكانت ريحًا عقيمةً لا خير فيها ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (الأحقاف:٢٥).

وهكذا أنكر الله تعالى على عاد الإعمار الفاسد وذلك لعبثية الغاية من البناء والإعمار، حيث لم تُبْنَ لحاجة ولا لغرض سليم، بل بقصد المباهاة وإظهار القوة وفي ذلك تضييع للزمان وإتعاب للأبدان بلا فائدة.

ثانياً: حضارة ثمود:

وثمود قبيلة من قبائل العرب، أرسل الله نبيه صالحاً عليه السلام إليهم، وكان صالح واحداً منهم، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (الشعراء:١٤٢)، ومساكنهم بـ (الحِجْر)، وهو مكان يقع الآن بين الحدود الشمالية للمملكة العربية السعودية وشرق المملكة الأردنية، وكان قوم صالح عليه السلام قد أنعم الله عليهم بمظاهر الحضارة من العُمران والبنيان، وهم بعد قوم عاد، قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ (الأعراف:٧٤)، القصور الفخمة في السهول صيفاً، والبيوت الضخمة في الجبال شتاءً، أماكن صيفية وأخرى شتوية آمنين فارهين، " وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ ثَمُودَ أَوَّلُ أُمَمِ الْبَشَرِ نَحَتُوا الصَّخْرَ وَالرُّخَامَ"[1]، وحوّلوا السهول إلى جنات وارفة الظلال متنوعة الثمار، فجمعوا بين القصور والعمران، وبين إنشاء الحدائق ذات بهجة، ولكنهم كانوا جاحدين لأنعم الله تعالى أيضاً، منكرين لوحدانيته، فطالبوا نبيهم بمعجزة تثبت أنه رسول من الله إليهم، فأتاهم بالناقة، ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ (الأعراف:٧٣)، وأمرهم أن يتركوا الناقة وشأنها، ولا يمسوها بسوء، غير أنهم لم يلتفوا لأمره، ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأعراف:٧٧) فعاقبهم سبحانه شر عقاب، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ (الأعراف:٧٨)، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ (الحجر:٨٣)، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ (الذاريات:٤٤)، ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ (الحاقة:٥). ونجى نبيه صالحاً والذين آمنوا معه لاتباعهم الحق، ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (هود:٦٦).

ويلاحظ أن الآيات الكريمة عبرت عن الْعَذَاب الذي أصاب قوم صالح عليه السلام، تارة بـ {الصَّيْحَةُ}، وتارة بـ {الرَّجْفَةُ}، وتارة بـ {الصَّاعِقَةُ}، وتارة {بِالطَّاغِيَةِ}، ولا تعارض بين هذه التعبيرات؛ لأنها متقاربة في معناها، ويكمل بعضها بعضاً، وهي تدل على شدة وأنواع ما أصابهم من العذاب، وخاصة أن قسماً منهم كانوا يسكنون السهول والقصور، وقسم آخر يسكنون الجبال، فالقصور منها ما بُنِيَ بالحجارة الصغيرة الموجودة في السهل، قال

---

١ – ابن عاشور، محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص٣٢٠.

الله تعالى: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ (الأعراف:٧٤)، ومنها ما نحتوها وقطعوها (مِنَ) الجبال، قال سبحانه: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ (الحجر:٨٢) ف (مِنَ) هنا للتبعيض، وقال الله تعالى: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ (الفجر:٩). أي: قطعوا صخر الجبال وخرقوها ونقّبوها واتخذوا فيها بيوتاً، والقسم الآخر منهم نحتوا الجبال ذاتها بيوتاً فارهين في موقع البتراء في الأردنّ، قال الله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ (الأعراف:٧٤)، فالذين سكنوا في الشمال (البتراء) أخذتهم (الصَّيْحَةُ) لأنّ (الرَّجْفَة) لن تهدم بيوتهم التي نحتوها في الجبال مباشرة، ولما كانت (الصَّيْحَةُ) أوسع انتشاراً من (الرَّجْفَةِ)، نجد أن الله تعالى يذكر الصيحة مع قوله (دِيَارِهِمْ) بالجمع، قال الله تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ (هود:٦٧) بينما يذكر الرجفة مع (دَارِهِمْ) بالمفرد، قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ (الأعراف:٧٨).

ثالثاً:حضارة فرعون:

قال الله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ. الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ (الفجر:١٠-١١) أي: ألم تر كيف فعل ربك أيضاً بفرعون صاحب الأوتاد؟ قال المفسرون: الأوتاد: الجنود الذين كانوا يشدون أمره، فالمقصود بالأوتاد أركان ملكه، وقال بعضهم: كان يربط الرجل في كل قائمة من قوائمه في وتد ثم يرسل عليه صخرة عظيمة فيشرخه بها، وعلى هذا التفسير: فإنه كان يستخدم الأوتاد المعروفة لتعذيب الناس.

وأرى أن السياق لا يساعد على ذلك، فالحديث يدور حول قوم عاد إرم ذات العماد، وثمود الذين ينحتون الجبال بيوتاً، ثم جاء ذكر فرعون ذي الأوتاد، فالأوجه أن تكون الأوتاد هي الجبال، كما قال الله تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ (النبأ:٧)، "وَالْوَتَدُ: عُودٌ غَلِيظٌ شَيْئًا، أَسْفَلُهُ أَدَقُّ مِنْ أَعْلَاهُ يُدَقُّ فِي الْأَرْضِ لِتُشَدَّ بِهِ أَطْنَابُ الْخَيْمَةِ، وَلِلْخَيْمَةِ أَوْتَادٌ كَثِيرَةٌ... وَالْإِخْبَارُ عَنِ الْجِبَالِ بِأَنَّهَا أَوْتَادٌ عَلَى طَرِيقَةِ التَّشْبِيهِ الْبَلِيغِ أَيْ كَالْأَوْتَادِ... فَشُبِّهَتْ جِبَالُ الْأَرْضِ بِأَوْتَادِ الْبَيْتِ تَخْيِيلًا لِلْأَرْضِ مَعَ جِبَالِهَا بِالْبَيْتِ وَمِهَادِهِ وَأَوْتَادِهِ"[١].

ومما يُؤيِّد ذلك ما ذكره القرطبي: "ووصف فرعون بأنه ذو الأوتاد. وقد اختلف في تأويل ذلك، فقال ابن عباس: المعنى ذو البناء المحكم. وقال الضحاك: كان كثير البنيان، والبنيان يسمى أوتاداً."[٢].

و تفسير قوله «فِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَاد» بأنّها إشارة الى إنهماك فرعون الشديد بالبناء والإعمار، يدعمه ما جاء على لِسان زوجة فرعون في قوله تعالى: ﴿... إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (التحريم:١١)، وقد ربطت زوجة فرعون في دعائها لله بناء بيت لها في الجنة بتخليصها من

---

١ – ابن عاشور، محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص١٥.

٢ – القرطبي، محمد بن أحمد، **الجامع لأحكام القرآن**، ج١٥، ص١٥٤.

فرعون أيضاً، فأصبح من الجلي أنّ في دعاء زوجة فرعون لله تعالى رفضها لدين زوجها فإن من بين ما رفضته من مغريات الحياة الدنيا القصور التي كانت ستعيش فيها.

ويؤكد هذا أيضاً قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ (غافر:٣٦)، أي قال فرعون لوزيره هامان: ابْنِ لي قصراً عالياً، وبناءً شامخاً منيفاً.

قال ابن عاشور: " وَوَصْفُ ذِي الْأَوْتَادِ لِأَنَّ مَمْلَكَتَهُ كَانَتْ تَحْتَوِي عَلَى الْأَهْرَامِ الَّتِي بَنَاهَا أَسْلَافُهُ لِأَنَّ صُورَةَ الْهَرَمِ عَلَى الْأَرْضِ تُشْبِهُ الْوَتِدَ الْمَدْقُوقَ"[١].

وقال الشنقيطي: "والذي يظهر والله تعالى أعلم: أن هذا القول هو الصحيح، وأنها مرتفعة، وأنها هي المعروفة الآن بالأهرام بمصر، ويرجح ذلك إلى عدة أمور:

منها: أنها تشبه الأوتاد في منظرها طرفه إلى أعلا، إذ القمة شبه الوتد، مدببة بالنسبة لضخامتها، فهي بشكل مثلث، قاعدته إلى أسفل وطرفه إلى أعلا.

ومنها: ذكره مع ثمود الذين جابوا الصخر بالواد، بجامع مظاهر القوة، فأولئك نحتوا الصخر بيوتاً فارهين، وهؤلاء قطعوا الصخر الكبير من موطن لا جبال حوله، مما يدل أنها نقلت من مكان بعيد. والحال أنها قطع كبار صخرات عظام ففي اقتطاعها وفي نقلها إلى محل بنائها، وفي نفس البناء كل ذلك مما يدل على القوة والجبروت، وتسخير العباد في ذلك.

ومنها: أن حملها على الأهرام القائمة بالذات والمشاهدة في كل زمان ولكل جيل، أوقع في العظة والاعتبار، بأن من أهلك تلك الأمم، قادر على إهلاك المكذبين من قريش وغيرهم"[٢].

وقوله: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ يجوز أن يكون شاملاً لجميع المذكورين: عاد وثمود وفرعون، ويجوز أن يكون نعتاً لفرعون لأن المراد هو وقومه.

رابعاً:حضارة سبأ:

قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ. فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ (سبأ:١٥-١٦)

ذكر الله تبارك وتعالى قصة قوم سبأ للعلم والعظة والاعتبار، وسُمِّيت السورة باسمهم؛ لعظيم ما في قصتهم من العلم والعظة، فسبأ[٣] قومٌ اكتملتْ نِعَمُهم ببناء سد مأرب، وكُفُوا مؤونة الطعام والشراب، وهما قيام الحياة؛ فأرزاقُهم

١- ابن عاشور، محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص٢٢١.

٢- الشنقيطي، محمد الأمين (المتوفى١٣٩٣ هـ)، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، دار الفكر للطباعة و النشر والتوزيع بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م، ج٨، ٥٢٥-٥٢٦.

٣- روى أحمد في المسند برقم: ٢٨٩٨، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ وَعْلَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ، يَقُولُ: إِنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ سَبَإٍ، مَا هُوَ: أَرَجُلٌ أَمِ امْرَأَةٌ أَمْ أَرْضٌ؟ فَقَالَ: "بَلْ هُوَ رَجُلٌ وَلَدَ عَشَرَةً، فَسَكَنَ الْيَمَنَ مِنْهُمْ سِتَّةٌ، وَبِالشَّامِ

حاضرة، وأرضهم مخضرَّة، وسماؤهم ممطرة، وثمارهم يانعة، وضروعهم دارَّة، تحيط بمساكنهم الأشجارُ والثمار، وتملأ جنبتي بلادهم؛ فلا يسيرون إلا في خضرة من الأرض، ولا يأكلون إلا أطيب الطعام والثمار، يشربون من الماء أعذبَه، ويتنفسون من الهواء أنقاه، فكل ما فيها لذيذ طيّب، حتى ذكر المفسّرون خلوَّ أرضهم وأجوائهم من الهوام والحشرات المؤذية، وهذا من أكمل ما يكون للعيش الرغيد، والراحة التامة، والنعم الكاملة، ولم يطلب منهم ربُّهم سبحانه وتعالى مقابلَ هذه النِّعَم المتتابعة إلا شكرَه عليها، ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ (سبأ:١٥).

لكنهم قابلوا دعوة الله تعالى لهم بالإعراض والاستكبار، فاستحقوا العذابَ والدمار، قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ العَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ (سبأ:١٦)، ففتح الله تعالى عليهم سدَّهم بسيل العَرِمِ؛ ليغرق بلادهم، ويهلك حرثهم وأنعامهم، ويتلف أشجارهم وثمارهم، فأضحتْ بلادُهم بعد الخضرة مغبرَّةً، وبعد الخصب مقفرةً، وبعد السَّعة ضيقةً، وذهبتْ نِعَمُهُم في لمح البصر، وصارت سبأ قاحلة ماحلة، وذلك بما كسبتْ أيديهم، وقد بيَّن الله تعالى سببَ زوال نعمتهم بقوله: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الكَفُورَ﴾ (سبأ:١٧).

لقد كانوا يسافرون من اليمن إلى الشام في أمن وطمأنينة، لا يحملون للسفر زادًا لوفرته في طريقهم، ولا يعدون له عدة؛ بل يسيرون ويستريحون في القرى التي في طريقهم، وهي على مراحل لا تنقطع عنهم، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ القُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ (سبأ:١٨)، لكنهم بلغ من كفرهم بنعمة الله عليهم ومن بطرهم في أسفارهم أن دَعوا الله تعالى بالمشقَّة والبُعد فقالوا: ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ (سبأ:١٩).

فكانت عقوبة الله تعالى لهم أن أفقرَهم بعد الغنى، وشرَّدهم بعد الاستقرار، وفرَّقهم بعد الاجتماع، ومزَّقهم في الأقطار شذر مذر، وجعل خبرَهم أحاديثَ وحكايات يتحدَّث بها الناس في مجالسهم ومسامرهم، حتى ضرب العربُ المثلَ بتفرُّقهم وشتاتهم، فقالوا: (تفرَّقوا أيدي سَبَأ)، وقد وصف الله تعالى ذلك كله بقوله: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (سبأ: ١٩)، وهكذا ختم الله تعالى قصةَ سبأ بإخبارنا أن في قصتهم آياتٍ عدةً، وليست آية واحدة؛ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، وبتلمُّس بعض هذه الآيات يظهر لنا أن حالة مساكنهم ورغدهم كانت آية على قدرة الله تعالى ورحمته وإنعامه، وفي إرسال السيل عليهم آية أخرى على شدة انتقامه، وسرعة عذابه، وفي تحوُّل حالهم من النعمة إلى النقمة آية على أن الله سبحانه وتعالى هو المدبِّر والمتصرِّف في هذا الكون، كما تظهر في انعكاس حالهم من الرفاهية إلى الشظف آيةٌ أخرى على تقلُّب الأحوال، علاوة على صفات الله تعالى من خَلْقٍ ورِزق وتدبير، وإحياء وإماتة، وآية على مبلغ عُمران إقليمهم، واتِّساع قُراهم، واتصالها ببلاد الشام، كما أن فيها آيةً

مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ، فَأَمَّا الْيَمَانِيُّونَ: فَمَذْحِجٌ وَكِنْدَةُ وَالْأَزْدُ وَالْأَشْعَرِيُّونَ وَأَنْمَارٌ وَحِمْيَرُ، عَرَبًا كُلَّهَا، وَأَمَّا الشَّامِيَّةُ: فَلَخْمٌ وَجُذَامُ وَعَامِلَةُ وَغَسَّانُ ".

على أن الأمن أساس العُمران؛ ولا بدَّ للبشر من تحصيل أسبابه، وتوطيد دعائمه، وتثبيت أركانه؛ فلا عيش بدون أمن، ورأس ذلك الإيمان والأخذُ على أيدي السفهاء المفسدين، وفي تمنِّيهم زوالَ النعمة بدعائهم على أنفسهم آيةٌ على ما قد تبلغه العقولُ البشرية من السَّفه والانحطاط، وفي نزوح قوم سبأ عن الأوطان، والتشتُّتِ في الأقطار، واللجوء إلى الآخرين آيةٌ على ما يُلجئ الناسَ إلى ارتكاب المكاره والأخطار، ومفارقة الأوطان والديار؛ فالاستقرار نعمة لا يعرف قدْرَها إلا المشرَّدون، كما أن قصة أهل سبأ دليل على عظيم قدرة الباري جل حلاله في تحويل النعمة إلى نقمة، فالماء نعمة كبيرة ولا يمكن استمرار الحياة بدونها؛ ولذلك يحجزه الناس بالسدود كسدِّ مأرب، وهي من أعظم نِعَم الصناعة في العصر الحديث، ولكن الله تعالى لما حوَّل المنحة إلى محنة، انطلق سيل سد أهل سبأ عليهم وقلّبّها خراباً يباباً، وهذا دليل على أنَّ مِن سنن الله في عباده أنه يجزي الشاكرين زيادةً ونماء، ويجازي الكافرين عذابًا وعقاباً، فمن وعاها عاش في أمن ونعيم، ومن أعرض عنها كان من الهالكين.

الخاتمة وتشمل أهم النتائج:

إن العمران البشري كطائر ذي جناحيْن بهما تتجسد إنسانية الخليفة القائم به: جناحِ الاستخلاف بما هو حرية واختيار، وجناحِ التسخير المشعر للإنسان بنسبيته ومحدوديته، وبوصلة تحدد الاتجاهات والمسارات، لأن البشر قابلون للنسيان والانحراف والفساد، فالبوصلة تتعهدهم بالرعاية المستمرة عبر إرسال الرسل وبيان الرسالات تذكيراً بأصل الأصول (العبادة) وتحديداً للمسؤوليات المترتبة عن أصليْ الحرية والاختيار، وتحقيقاً لأسباب العدل الإلهي في معاملة المستخلف إما شاكراً وإما كفوراً، وتخومٌ محرّمة هي سلوكات الفساد والإفساد.

بعد هذه الدراسة حول مفهوم العُمران في ضوء آيات القرآن الكريم، توصل الباحث إلى عدة نتائج على الشكل التالي:

١- أن الإسلام عنى بعمارة الأرض ورعاية الكون عناية خاصة وأولاها اهتماماً مشهوداً، فالله سبحانه وتعالى خلق الكون وهيّأ فيه الظروف المثلى للحياة السعيدة المستقرة قبل خلق الإنسان.

٢- أن العُمران مقصد مِن كبرى مقاصد القرآن، بل هو مقصدُها العام، لأنها تفيد العُمران في المباني والمعاني معاً، لأن العُمران المادي إذا لم يقترن بالجانب الإيماني والأخلاقي تعَرَّض للفساد والدمار، ولا يمكن أن نؤسس لحضارة إنسانية وارفة الظلال إلا بإعمار وتزكية الجانب الخلُقي والإنساني فيها.

٣- أن أسس هذا العُمران: هو الإنسان، والمكان (الأرض)، والرِّسالة السماوية.

٤- وأنَّ الإنسان مستخْلَف في الأرض ومكلَّف بعمارتها وفْق شرْع الله وهدْي أنبيائِه عليْهم السَّلام، وأن هذا الاستِخْلاف في الأرْض تشريف وتكليف للإنسان بتحمُّل الأمانة العُظْمى الَّتي لم تحتمِلْها السَّماوات والأرض ليقوم بإعماره على الوجه الأكمل الذي يحقق به مرضاة ربه وخدمة بني جنسه وخدمة الكون من حوله.

٥- وأن شرْطا الاستخلاف والتمكين في الأرض هما: الإيمان بالله ورسوله، والعمل الصالح النافع.

٦- وأن الله تعالى سخَّر للإنسان الكون كلَّه بلا أجر ولا ثمن، فالتسخير الذي كثُر ذكره في القرآن الكريم شاحِذٌ رئيس لاكتشاف نواميس الكون ومعرفة مجالات التسخير فيه، وكيفية خدمة الإنسان بذلك.

٧- وأن هناك شبه تلازم في القرآن الكريم بين مصطلح (الفساد) وكلمة (الأرض) في إشارة إلى أن ظاهرة الفساد التي يشير إليها القرآن الكريم ليست ظاهرة فردية، أو محدودة بمجتمع ضيق، بل هي ظاهرة تعم المجتمع الإنساني بغالبيته في الكرة الأرضية كلها.

٨- وأن مصطلح (الفساد) يقابله في القرآن الكريم مصطلح (الإصلاح)، فيفهم من ذلك أن هناك عملية إفساد وخراب لهذا الصلاح، كما في ذلك إشارة إلى دور الأنبياء والمرسلين في حفظ الاعتدال والتوازن في المجتمعات الإنسانية.

٩- وأن سبب فساد المجتمعات هو الأنظمة السياسية المستبدة، ونماذج الإفساد كثيرة قديماً وحديثاً، والخلاص من الطغاة والحُكّام الظلَمة هو طريق سعادة المجتمع وعُمرانه واستقراره.

١٠- أن عمارة المساكن تعني السكينة والراحة والاستقرار والوقاية من الضوضاء مع توفير الراحة النفسية والاجتماعية والتمتع بالخصوصية.

١١- وأن التطاول فى البنيان أفقد المجتمع الإسلامي الروابط الاجتماعية ومضمون الجوار الذي حث عليها النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً، أضف إلى ذلك ظهور كثير من الأمراض النفسية والمعاناة في الحياة.

١٢- أن الحضارات المعمارية الكبرى مهما عظمت ستؤول إلى الخراب والدمار إن لم يتحصن أهلها بشكر الله تبارك وتعالى، كما حدث لحضارة عاد وثمود وفرعون، وقد دمرت حضارة سبأ حين فُتِح السدُّ على أهلها فمزّقهم شذر مذر، وأصبحوا أحاديث يسمُر الناس بحكاياتهم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع:

- **الكتب:**

١- إبراهيم، عبد الباقي، "**رحلة البحث عن الذات وأصول العمارة فى الإسلام**- (النشأة - العقيدة - المنهج - النظرية) (سيرة ذاتية)، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

٢- الأصفهاني، الحسين بن محمد المعروف بالراغب. **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، بيروت، دار القلم الدار الشامية، ١٤١٢هـ.

٣- الأصفهاني، الحسين بن محمد المعروف بالراغب (المتوفى ٥٠٢هـ)، **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، تحقيق: أبو اليزيد أبو زيد العجمي، القاهرة، دار السلام - ١٤٢٨ هـ، ٢٠٠٧م.

٤- البخاري، محمد بن إسماعيل(المتوفى٢٥٦هـ)، **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري)**، تحقيق: محمد زهير بن ناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

٥- البخاري، محمد بن إسماعيل، **الأدب المفرد**، تحقيق: سمير بن أمين الزهيري، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

٦- البقاعي، إبراهيم بن عمر (المتوفى٨٨٥هـ)، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت.

٧- البيضاوي، ناصر الدين عبد الله بن عمر (المتوفى ٦٨٥ هـ)، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

٨- الترمذي، محمد بن عيسى(المتوفى: ٢٧٩هـ)، **سنن الترمذي**، تحقيق: أحمد محمد شاكر وغيره، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٥ هـ، ١٩٧٥م.

٩- الجابري، محمد عابد (المتوفى ٢٠١٠م)، **فكر ابن خلدون العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة السادسة ١٩٩٤م.

١٠- الجصاص، أحمد بن علي (المتوفى٣٧٠هـ)، **أحكام القرآن**، تحقيق: محمد صادق القمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ.

١١- ابن حنبل، أحمد (المتوفى٢٤١هـ)، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وغيره، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

١٢- حوى، سعيد (المتوفى١٤٠٩هـ)، **الأساس في التفسير**، دار السلام، القاهرة، الطبعة السادسة ١٤٢٤هـ.

١٣- أبوحيان، محمد بن يوسف (المتوفى ٧٤٥هـ)، **البحر المحيط في التفسير**، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، الطبعة ١٤٢٠ هـ.

١٤- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (المتوفى٨٠٨هـ)، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

١٥- الرازي، محمد بن عمر الملقب بفخر الدين(المتوفى ٦٠٦هـ)، **مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ.

١٦- الساعاتي، أحمد بن عبد الرحمن (المتوفى١٣٧٨هـ)، **الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ومعه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني**، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، د.ت.

١٧- الشنقيطي، محمد الأمين (المتوفى١٣٩٣ هـ)، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، دار الفكر للطباعة و النشر والتوزيع بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

١٨- الطبراني، **المعجم الكبير**، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الثانية، د.ت.

١٩- الطبري، محمد بن جرير (المتوفى٣١٠هـ)، **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٢٠- ابن عاشور، محمد الطاهر (المتوفى١٣٩٣هـ)، **تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد**، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٤م.

٢١-ابن عبد السلام، عز الدين (المتوفى: ٦٦٠هـ)، **قواعد الأحكام في مصالح الأنام**، تعليق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٤١٤هـ ١٩٩١م.

٢٢- علي رضا، محمد رشيد (المتوفى١٣٥٤هـ)، **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

٢٣- العمادي، أبو السعود (المتوفى ٩٨٢هـ)، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.

٢٤- الغزالي، محمد أبو حامد (المتوفى ٥٠٥هـ)، **إحياء علوم الدين**، دار المعرفة، بيروت،د.ت.

٢٥- ابن فارس، أحمد. **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

٢٦- الفاسي، علال (المتوفى ١٣٩٤هـ)، **مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها**، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الخامسة،١٩٩٣م.

٢٧- الفراهيدي، الخليل بن أحمد (المتوفى:١٧٠هـ)، **كتاب العين**، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د.ت.

٢٨- القرطبي، محمد بن أحمد (المتوفى٦٧١هـ)، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: أحمد البردوني وغيره، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م.

٢٩- قطب، سيد (المتوفى ١٩٦٦م)، **في ظلال القرآن**، دار الشروق، الطبعة الثانية والثلاثون، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.

٣٠- ابن القيم الجوزية محمد بن أبي بكر (المتوفى ٧٥١هـ)، **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

٣١- ابن كثير، إسماعيل بن عمر(المتوفى٧٧٤هـ)، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

٣٢- المراغي، أحمد بن مصطفى (المتوفى ١٣٧١هـ)، **تفسير المراغي**، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى، ١٣٦٥هـ، ١٩٤٦م.

٣٣- مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.

٣٤- ابن منظور، محمد بن مكرم (المتوفى١٧١١هـ)، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.

٣٥- النعماني، عمر بن علي (المتوفى ٧٧٥هـ)، **اللباب في علوم الكتاب**، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وغيره، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ،١٩٩٨م.

٣٦- النووي، يحي بن شرف (المتوفى ٦٧٦ هـ)، **روضة الطالبين وعمدة المفتين**، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٢هـ ، ١٩٩١م.

٣٧- هازار، بول، **أزمة الوعي الأوربي ١٧١٥-١٦٨٠**، ترجمة يوسف عاصي، مراجعة بسام بركة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م.

٣٨- وزيري، يحيى، العمران والبنيان في منظور الإسلام، دولة الكويت، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ،٢٠٠٨م.

- **الدوريات:**

٣٩- - حمِّيش، عبد الحق، **الفكر الاقتصادي عند العلامة ابن خلدون مقارناً مع النظريات الاقتصادية الحديثة**، مجلة دراسات اقتصادية إسلامية، العدد الثاني، محرم ١٤٢٧هـ.

٤٠- عزب، خالد محمد مصطفى، **تخطيط وعمارة المدن الإسلامية**، في تقديم: عمر عبيد حسنه، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م، كتاب الأمة، العدد ٥٨، السنة السابعة عشر.

- **المواقع الإلكترونية:**

٤١- البوزي، محمد، "**التقوى والعمران الحضاري في القرآن**" بحث منشور في موقع الألوكة الالكترونية، تاريخ الإضافة: ٢٠٠٩/٦/٣٠ ميلادي - ١٤٣٠/٧/٧ هجري، على الرابط التالي:

/http://www.alukah.net/publications_competitions/0/6447

٤٢- رمضان، يحيى، "**القرآن والعمران قراءة في المفاهيم المؤسسة**"، بحث منشور في الملتقى الفكري للإبداع، تاريخ النشر: ٢٢-٠٨-٢٠٠٩، على الرابط التالي:

http://www.almultaka.org/site.php?id=768&idC=1&idSC=1

٤٣ - القحطاني، مسفر بن علي، "**سؤال التسخير الكوني للإنسان: رؤية مقاصدية**"، بحث منشور في موقع مجلة الإحياء المغربية الصادرة عن الرابطة المحمدية للعلماء، ندوات، على الرابط التالي:

http://www.alihyaa.ma/Article.aspx?C=5812